Orient. Seminar
UNIVERSITÄT
78 Freiburg / Br.
Inv.
Az 14/8

المقتطف

الجزء الاول من المجلد السابع عشر بعد المئة

١ يونيو سنة ١٩٥٠ ١٧ شعبان سنة ١٣٦٩

الصهيونية وضد السامية

للسير أرثر جيث

صدر في العام الماضي كتاب جديد بقلم الدكتور ارثر جيث بموضوع « نظرية جديدة في التطور البشري » سلخ فيه بضعة عشر عاماً . والمؤلف يعد في مقدمة علماء الانثربولوجيا (التاريخ الطبيعي للاجناس البشرية) . وله في هذا الكتاب بحث قيم في الصهيونية ، و « ضد السامية » . فأثرت أن أنقله الى المقتطف لكي يرى القراء عقيدة كبير علماء العصر ورأيه في الموضوع الذي شغل بال الناس في العصر الاخير . كتب : —

منذ أكثر من نصف قرن كانت لي فرص مناسبة لدراسة اليهود عن كثب . وجمعت في مدة ٣٠ سنة حقائق مختلفة عنهم ودرست تواريخهم التي لا ينقصها شيء . وليس غرضي أن أضيف فصلاً لتاريخ اليهود ، بل ان نظرية التطوُّر البشري التي بسطتها في هذا الكتاب تساعدنا على أن نفهم أصل اليهود كشعب قائم بنفسه ، منفصل عن سائر الشعوب ، وأن نفهم سبب الحظ السيء الذي رافقهم في تاريخهم الطويل . وهناك عاملان جوهريان لنظريتي : الأول : أن التطوُّر البشري يقوم بمناهضة جماعة لأخرى : الثاني أن الجماعات تبقى منفصلة بعضها عن بعض بعامل العداوة المتبادلة بينهما . فالعزلة هي شرطٌ لا بدَّ منه للجماعة اذا كانت تتطوَّر . إني أنسب العواطف السيئة التي يحتمل أن تنشأ في الأمم ضد جماعات اليهود التي هي ضيوف عليها — أنسبها الى العداوة التي تفصل الجماعات المتطورة بعضها .

من بعض — وأعني بهـا الخصومة التي تثير نقمة العالم المتمدن الحديث المعروف باسم « ضد السامية » (١)

وأول حركة كانت ضد اليهود ذُكرت في سفر استير (من التوراة) الذي كُتب في القرن السادس قبل المسيح (٢). فقد ورد في العدد السابع فما بعد من الاصحاح الثالث : —

« في الشهر الاول أي شهر نيسان في السنة الثانية عشرة للملك احشويرش كانوا يلقون فوراً أي قرعة أمام هامان من يوم الى يوم ومن شهر الى شهر الى الثاني عشر، أي شهر اذار . فقال هامان للملك احشويرش انه موجود شعب ، متشتت ومتفرق بين الشعوب في كل بلاد مملكتك ألسنتهم مغايرة لجميع الشعوب ، وهم لا يعملون سنن الملك ، فلا يليق بالملك تركهم . فاذا حسن عند الملك فليكتب أن يبادوا الخ »

(طبق الاصل العبري)

هذا كان أول خبر عن اضطهاد اليهود، أي ضد السامية وعن أول هتلر في التاريخ. لأن هامان في فارس القديمة كرّس نفسه للعمل المضاد للانسانية كما فعل هتلر في المانيا الحديثة. وبين زمن هامان وزمن هتلر لم يتمتع اليهود بالراحة والسلام في أي بلاد زمناً طويلا . قال رينان ان « مضادة السامية » تتكرر في كل مكان في جميع الأزمنة . وانكلترا التي كانت متساهلة جدًّا مع اليهود في العصور الأخيرة لم تكن هكذا دائماً . فقد حدثت مذابح في لندن وفي يورك قبل أن تطرد انكلترا اليهود في سنة ١٢٩٠ . وكذا يمكن أن يقال عن فرنسا التي طرد منها اليهود في سنة ١٣٠٦ . وكانت انكلترا وفرنسا في القرنين ١٣ و١٤ لا تزالان بربريتين في عقليتيهما . ولذلك كانتا أكثر عرضة للثورة العنصرية منهما في العصر الثقافي الأخير . يجب أن نتذكر أن هاتين المملكتين كانتا في القرون السابقة مبتدئتين ان تكونا ذاتي عقلية شعبية أو أممية . وأنا أعزو الى « الشعبية » لا الى التمدن أو القدمية الدينية ، مظاهرات اضطهاد السامية في غربي أوروبا . ففي القرن العشرين كان شعب المانيا متمدناً ومثقفاً ومع ذلك فقد بلغ الشعور فيه ضد اليهود أبلغ ما يمكن من القسوة والشناعة: فقد احتدم الاحساس الألماني بالجنسية حتى صار حرارة بيضاء بنفخ زعيمه هتلر المتعصب

---

(١) السامية نسبة الى سام بن نوح والمراد بها السلالة المتسلسلة من سام وخصوصاً اليهود . وأطلقت أخيراً على معظم الامم الاسيوية . والحركة القائمة « ضد السامية » يراد بها ضد اليهود .

(٢) وقد كتبه اليهود أنفسهم بعد رجوعهم من سبي بابل ، وكتبوه كما توحي إليهم غاياتهم

في كوره ، لأن هتلر كان وطنيًّا صريحًا على سنة التطوّر . وفي رأي الكثيرين أن العداء للسامية يحتمل جدًّا أن يشتد حينما يقيم اليهود كجالية كبيرة متكاتفين . ففي بولاندا مثلاً حيث كان في سنة ١٩٣٩ نحو ثلاثة ملايين و ٣٠٠ الف يهودي ، وهم عشرة بالمئة من السكان ، كان العداء للسامية داء متوطناً . فلا يمكن أن يكون دائماً هذا العداء بسبب الازدحام ، لأنه في مدينة نيويورك العظيمة العدد الآن لا أقل من ٢٠ بالمئة يهود ، ومع ذلك فالمدينة سليمة من مناهضة السامية المنظمة .

والآراء بشأن أصل هذه المناهضة وسببها وطبيعتها مختلفة اختلافاً كليًّا . ولكن في نقطة واحدة يتفق الثقات اليهود « والأمم »(1) وهي ان هذا العداء يتلاشى بالاواج الحر بين اليهود والأمم . بهذه الوسيلة البسيطة يمكن اليهودي أن يكسب الحريات التي كان يتوق لها ، ويريد أن يحصل عليها بالطريقة التي كان يأباها باحتقار في جميع الأجيال . وكان اليهودي يغضب ويتقد غيظاً بالتلميح الى أن الامتزاج بالزواج هو العلاج الوحيد لهذا العداء . و « نامير » أحد الباحثين في هذا الموضوع يعتبر أن الامتزاج بين الفريقين انما هو اعتراف بالانحطاط (من قبل اليهود) . وفي مطالعاتي لم أعثر على شاهد واحد على جماعة يهودية واحدة ملوّثة نفسها طوعاً بالزواج من الأجانب (الجوييم) لأن الخوف من هذا الامتزاج متأصل في طبيعة اليهودي . واليهودي المتشبع عقله بالدين يفسر لك أن خوفه من الالتحام بالأمم الأخرى ورغبته في أن يخلد جنسه انما هما عبارتان عن اصراره على أن يحتفظ بايمانه لكي يتمم رسالته الالهية . فبهذا المعنى تعتبر « مضادة السامية » هي ما يدفعه اليهودي ثمناً ليس لسلالته بل لدينه .

وقد قال أحد الناس لقراء جريدة التيمس أن « ضد السامية »(2) يُفسَّر بلغة الدين والتاريخ والعاطفة ، وليس بلغة علم الأجناس البشرية . وإنما أنا أحاول أن أفسر هذا الخلل الاجتماعي بلغة علم الأجناس . وإذا شئنا أن نظفر بعلاج له وجب أولاً أن نحسن تشخيص

---

(1) من قديم الزمان من عهد سليمان بل من عهد موسى كان اليهود يعتبرون اممياً كل من ليس يهودياً أي انه من الامم التي لاحظ لها بنعم الله . وكانوا لايزالوا يسمون الامم « جوييم » أي الاغراب المنبوذين الانجاس .

(2) نعبر بعبارة « ضد السامية » عن عبارة Anti Samitism

الداء . وقد رأينا في مباحثنا السابقة (في كتاب المؤلف) أن النعرة السلالية تنشأ حين تختلط سلالتان في منطقة واحدة ، أي في اقليم واحد . وهكذا « ضد السامية » في مثل هذا الظرف انما هو نوع من « السلالية » . وهنا دليل آخر على أن « ضد السامية » هو نوع خاص من الطبيعة السلالية ، هو اجتماعي في فعله . فمن كان «ضد السامية» يلوم الجماعة لسوء عمل أي واحد من أفرادها . أما « ضد السامية » كسائر صور أو أشكال «السلالية» لم تنشأ من الداخل ، بل هي خلة مكتسبة من الخارج ، وإنما أساسها العاطفي والعقلي مولود من الداخل . العواطف السلالية إذا حُرِّكت أمكن أن تفعل الفظائع التي لا توصف .

كتب صديقي الأستاذ هونوت من هرفرد : « ليس على الانسان أن يكون عالماً بالسلالات البشرية لكي يتحقق أن الجماعة التي تمتاز طبيعيًّا واجتماعيًّا تثير بلا شك الحسد والبغضاء في الجماعات الأخرى . وفرنز بوعز الانثروبولوجي اليهودي المشهور يعتبر « السلالية » كعداء يثار بفعل تماسك الجماعة » . والجماعات اليهودية إنما هي جماعات متكتلة . ولكن في الهند ألوف الطوائف المتجاورة ، فلا يحدث بينها نزاع صريح ، إلاّ اذا كان ثمت جماعات مختلفة في عنصريتها جدًّا فقد تقتتل . والأستاذ فلور قرب الى الحقيقة حين قال « ان الوجدان الجماعي يكره ما لا يستطيع أن يندغم فيه ويتمثلهُ » . وقد ذكر كرونهوف كارجي . ان ما أهاج الاغريق الرومان ضد اليهود كان ذلك الحجاب الذي لا ينفذ الذي أقامه اليهود بينهم وبين من ليسوا يهوداً . وإنما فعلوا هذا لأن شريعتهم أحرجتهم ان يفعلوه » . فأظن إذن ان هذا هو التعليل الصحيح الذي كتبه صديق عن المتراس النفساني الذي أحاط اليهود أنفسهم به لكي يتفادوا امتصاص غيرهم لهم . وكتب ساكار سنة ١٩٣٤ عن ثلاثة مليون يهودي في روسيا : « إنهم قوم غير قابلين للإلتحام مع غيرهم ، وأنهم قساة كالحديد وعنيدون كالموت . هم عظمة ضخمة في بلعوم الشعبية » وماذا حدث لليهود في روسيا بعد ما كتب ساكار هذا الكلام ؟ لا أدري . ولكن مع ذلك لا أستطيع أن أعتقد ان حكومة السوفيات نجحت في امتصاصهم (١) . ولكي أتم

---

(١) ولكن يظهر ان السر آرثر كيث لا يدري ان معظم الذين أحدثوا الانقلاب في روسيا هم يهود . وقد إختفت جنسيتهم وراء الالحاد الذي حشوه على الروسيين

تعليقي على تصرف اليهود بأزاء الأمم (الجوييم) المحيطين بهم يجب ان أذكر شهادة عالم يهودي هو الأستاذ نامير الذي سبق ذكره بقوله : « ما دام اليهود جماعة منطوية على نفسها متراصة وذات وجدان ونخر قومي خاص بهم فهم يحافظون على قوتهم وحيويتهم »

ولعلّ أظهر الخواص العقليـة في السلالة هو عدم رؤيتها الأشياء من ناحيـة الشعب المضاد . والعقيدة التي يتمسك بها المرء بشأن أمته أو سلالته هي طبيعة اقتناعه المغروسة في وجدانه بأن عقيدته لا تحتمل النقض، وتبقى هكذا ليست موضوعاً للبحث . واليهودي متحير باخلاص وبلا تصنع في سبب سلوك الأمم ضده . وأحياناً ينسب هذا العداء للحسد له من جراء نجاحه الذي يلازم جهاد الجانب الأكبر من اليهود في المهن الراقية . وهو ميّـال لأن يعزو قساوة الأمم الى طبيعـة الشر التي لا بدَّ منها بكبش الفداء . ويندر أن يسأل : « لماذا قومي هم مكروهون لدى كثير من الأمم ؟ » وجوزف كاستين يفسر هذا الكره بقوله : « اليهودي لا يسأل عدوه لمـاذا تعاملني هكذا ؟ وهو يتوجه الى المحكمة العليـا ويسأل : لماذا تحكمين عليَّ هكذا ؟ » . وكاستين يضيف الى هذا في كتابه قوله : « دعنا نتذكر تعليم تاريخنا العظيم ان « ضد السامية » ليس قضية يهودية بل هو قضية أجنبيـة أي أممية . وكذلك الجملة الأولى في كتاب لويس جولدن هي : « ان ضد السامية ليس قضية يهودية بل هي قضية أممية » . وقد كتب لي يهودي وجيه ممتاز يقول : « لعلك ترى ان سبب هذا الترفع ليس في اليهود أنفسهم بل في الشعب الذي يقيم اليهود معه » والأستاذ هوتون لا يساهم بهذه الملاحظة فيقول : « اني أشك في أن الأسبقية في الكره والميل الى العزلة ليست في غير اليهود » ان في قدم الأمم دمامل سلالية متى دست عليهـا صرخت الأمة ذات الدمل . والعادة ان لا تلوم الشخص ذي الدمل بل تلوم الدائس . والذين يؤيدون المسلك اليهودي يردون على هذا القول : « دع الأممي يعالج دمله السلالي ، لقد مضى على الأممي الفا سنة وهو يطلب العلاج فلم يظفر به » .

ان مطلع علاقة اليهودي بالأممي معتّم لولا ان بعض اليهود أمكنهم ان يروا الأشياء بعين أممي أو من وجهة النظر الأممية . في ١٠ أغسطس سنة ١٩٣٤ ظهر في جريدة الكرونكل اليهودية مكتوبٌ نأخذ منه الفقرة التالية : « يتضح انه ليس حقيقيـاً ان النكبة اليهودية

نتجت من عدم التساهل فقط . وكل ما على اليهود ان يفعلوه هو ان يرتبطوا ارتباطاً متيناً ويسمحوا للحكومات المختلفة ان تستأصل روح «ضد السامية» . القضية اليهودية لا تخص الحكومة فقط ، بل هي ان لليهود حقوقاً يجب أن يأخذوها .

وهنا لا بدَّ من الاشارة الى السلالة التي يختص بها اليهود . ان تصرفهم مبني على قانون الثنائية ، أي ان يكون لهم قانون خاص بأبناء جنسهم ، وهو قانون المودة ، وقانون آخر لمن هم خارجون عن جنسهم ، وهو قانون العداء ، ان القانون الثنائي أو النظام الثنائي هو علامة التطور السلالي أو السلالة المتطورة . ورأيي الخاص ان الخواص السلالية مترقية في اليهود أكثر من سائر الشعوب القوقاسية (١) . الـ «ضد سامية» اذن ليست إلاَّ سمّ زعاف من السلالية .

ان زملائي الانثروبولوجيين ، بتأثير تعويذة المثل العليا الأدبية ، خدموا الأمميين واليهود خدماً سيّئة بتسميتهم أسماء جميلة لأشياء قبيحة . فهم أرادوا أن يقنعوا اليهود انهم ليسوا سلالة ، بل هم جماعة بشرية مجموعة معاً بجامعة الدين . بل هم أكدوا لبقية الشعوب القوقاسية انهم ليسوا سلالة . ولذلك فالعداوة التي بين الأمم واليهود ، انما هي نوع من الهستيريا المتهيجة صناعيًّا لا طبيعيًّا . والانثروبولوجيون الاختصاصيون بحسن ظنهم في العالم نجحوا في اخفائهم عن العالم طبيعة قروحه . فاذا أريد شفاء هذه القروح يجب أن تعرض بوضوح لنظر الجرّاح وأن تسمى بأسمائها الحقيقية .

والآن نتقدم للنظر في الوجهة السلالية للخطط اليهودية التي نشأت في النصف الأخير من القرن التاسع عشر تحت اسم الصهيونية . ان حلم النبي (نحميا) بأورشليم ، وفي وسطها صهيون ، انما هو أمنية خيالية تمسك بها كل يهودي حديث في هذا الزمن . والصهيونية كانت في بادىء امرها حركة أريد بها تحقيق هذا الحلم . وقد عزز هذا الأمل اعتبارات أخرى . ففي منطقة خاصة باليهود يزول خوفهم من أن تبتلع قوميتهم أمة أخرى . يكون

---

(١) السير ارثر كيث يعتقد أن أصل الامم الاوروبية حتى جميع الامم الى حول البحر المتوسط هو إنسان النيندرتال Neanderthal الاول الذي عاش في القوقاس وانتشر في أوروبا أو غربي آسيا وشمالي أفريقيا

اليهود في مركز يهجرون فيه لسانهم الأممي الذي اكتسبوه ، ويصبحون أحراراً في أن ينعشوا لسانهم الأصلي — العبرية — الذي أصبح لساناً ميتاً مدّة ٢٥ قرناً . وفي أقليم خاص بهم يمكنهم أن يمارسوا طقوسهم ويحفظوا دينهم ويحافظوا على عاداتهم . يمكنهم أن يرقوا ثقافتهم بكل فروعها . وعلاوة على ذلك استقلالهم ذو السيادة يؤذن لهم أن يسيروا في طريق مصيرهم السلالي على هواهم . وأخيراً يعود لهم وطن قومي حقيقي .

في سنة ١٩١٧ أرادت الوزارة الانكليزية أن تعترف بخدمة مهمة قدمها الدكتور شايم ويزمان للحرب . فسألوه ما ذا يريد مكافأة عليها .

فأجاب أنه لا يريد مالاً ولا رتبة شرف ، بل هو يود أن يكافأ مكافأة سخية وهي ان تسمح الحكومة البريطانية بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين . فعُرض هذا المشروع على مستر بلفور ، الذي صار بعدئذٍ اللورد بلفور وهو أحد الوزراء ، لكي يعلنه . وكان بلفور في الطبقة الأولى من الساسة . وهو ذو عقل ديني ودهاء وضلاعة في الفلسفة ، ويعتقد ان الحرص على القانون والنظام أول واجبات الحكومة . فاذا ظهر التفاوت السلالي (بين العرب واليهود) يجب أن يقمع بيد قوية . وهكذا منح اللورد لويد جورج الدكتور ويزمان هذا الطلب ، وثنّاه المستر ونستون تشرشل . وبهذه العملية وجدت الحكومة البريطانية نفسها منساقة الى الصهيونية .

وفي سنة ١٩٢٢ أعطت جمعية الأمم حق الانتداب على فلسطين للحكومة البريطانية . وكان لانتدابها شرطان : الأول أن يُسهّل انشاء وطن لليهود في فلسطين : الثاني أن يحافظ على حقوق سكان فلسطين ومركزهم فيها . وهكذا أصبحت بريطانيا مسؤولة لدى شعبين : اليهود والعرب في فلسطين . وقد وعدت أن تخولهم الحق أن يعيشوا متعاونين في أرض صغيرة .

مساحة فلسطين أكثر من ٩٠٠٠ ميل مربع قليلاً ، ونصف هذه المساحة تقريباً قاحل وهي لا تحتمل أكثر من مليون ونصف نسمة ، اذا كانت تفلح وتزرع لأقصى حد . وفي سنة ١٩٢٠ كان عدد اليهود نحو ١٥ مليون نسمة في العالم كله ، وارض الميعاد الموعود بها شعب اسرائيل لا تحتمل إلاّ كسور هذا العدد . وفي ذلك الحين أمكن فلسطين ان تأوي نحو ٦٧٣٠٠٠ عربي منهم ٦٧٠٠٠ يهودي يعني أن يهود فلسطين كانوا عشرة بالمئة من السكان . وعرب فلسطين ، في ١٣٠٠ سنة مدة احتلالهم للبلاد ، لم يكونوا شعباً منفصلاً مستقلاً . فكانوا كسائر اخوانهم في صحاري بلاد العرب قبائل في نظامهم وعقليتهم . فالخطر المشترك وحّد بينهم في أمة قائمة بنفسها وقوامها . ورأى العرب ان وعد بريطانيا

لليهود بوطن قومي إنما هو تهديد لوطنهم ولمنهاج حياتهم ولوجودهم كأمة . وشعورهم هذا ساقهم الى الثورة ضد اليهود في سنة ١٩٢١ — ١٩٢٢ والهياج الذي احتدم سنة ١٩٢٩ بين المسلمين واليهود بشأن « حائط المبكى » كان شديداً وخطيراً ودموياً . وفي سنة ١٩٣٠ تطوَّرت عداوة العرب فصارت ضد البريطانيين كما كانت ضد اليهود . وفي سنة ١٩٣٦ نهضت الأمم العربية . فتحرك العرب وشبت حرب التحرير حرب استقلال فلسطين. وقد روت جريدة التيمس في الخامس من اكتوبر سنة ١٩٣٨ « ان أنفاراً مسلمين تجمعوا في الروابي وألفوا شعباً عربيًّا متحداً . وصار الشيخ جنديًّا في حرب مقدَّسة . وبات استاذ المدرسة داعياً للحرب . وأصبح الأمن تحت خطر » . وتقسيم البلاد الى مناطق عربية وأخرى يهودية كما أوصت لجنة بيل للحكومة البريطانية سنة ١٩٣٧ أرضى العرب قليلاً كما أرضى اليهود . ومن سنة ١٩٣٦ الى ١٩٣٩ توالت حوادث الاغتيال والقتل. وخاف اليهود ان يقذف بهم العرب الى البحر، وخاف العرب ان يضطروا الى الالتجاء مع أطفالهم الى الصحراء . وفي سنة ١٩٣٩ أمكن الحكومة البريطانية ان تسكن روع العرب قليلاً بأن حددت عدد المهاجرين اليهود الى فلسطين بعشرة آلاف كل سنة الى أجل غير مسمى

والآن بدأت الحكومة البريطانية في سنتي ١٩٣٩ — ١٩٤٥ تتحقق ان بين الروح العربية والالتزام البريطاني نحو اليهود تضاداً شديداً . وفي أوائل الحرب كانت فترة هجوع في النزاع الفلسطيني .

وفي سنة ١٩٤٢ رؤي ان سكان فلسطين زادوا من ٧٤٠٠٠٠ في سنة ١٩٢٠ الي ١٦٢٠ ٠٠٠ ، والعرب ومنهم اليهود القدماء الذين كان عددهم ٦٧٣٠٠ صاروا يعدون الآن ١،١٥٦٠٠٠. وارتفع اليهود من ٧٦٠٠٠ الى ٤٨٤ ٠٠٠ . وبهذه الزيادة صار اليهود أكثر عدواناً في تصرفهم وسياستهم . طلبوا الى الحكومة البريطانية أن تنفذ انتدابها وان يسمح لليهود ان يتوغلوا في فلسطين ، وان يزداد عدد اللاجئين منهم اليها الى مئة الف في الحال ، وان لا يتحدد عدد اللاجئين على الاطلاق . قال باجهوط ان الأمة اليهودية ربحت قضيتها بحكم القانون لا بالحرب . وفي هذه الحال رفض طلبهم فضربوا بالقانون عرض الحائط ولجأوا الى السلاح بطريقة شيطانية فظيعة . فوجد البريطانيون أنفسهم في فلسطين في نفس الموقف الذي كان فيه الرومان منذ الفي سنة. فحارب اليهود بنفس التعصب والشراسة لأجل استرداد فلسطين كما فعل أجدادهم في زمن الرومان والمكابين لتحرير بلادهم . والستة عشر مليون يهودي المشتتين في العالم ولا سيما يهود الولايات المتحدة كانوا يشدون أزرهم . والعرب لم يهملهم اخوانهم ، فان الأربعة عشر مليون عربي الذين في بلاد العرب والعراق وسوريا اتحدوا في

مناصرة الفلسطينيين . وكذلك فعل المصريون . ولكن ما من أمة انحازت للبريطانيين بل بالعكس . والولايات المتحدة طلبت الى بريطانيا أن تمنح ١٠٠٠٠٠ يهودي حق الدخول الى فلسطين في الحال .

وفي سنة ١٩٤٦ تألفت لجنة من ١٢ عضواً : ستة يمثلون الولايات المتحدة، وستة يمثلون بريطانيا، وأرسلت الى فلسطين لكي تفحص الحالة وتقدم تقريراً فيها . وروت التيمس في أول مايو سنة ١٩٤٦ ان اللجنة قررت انها وجدت فلسطين معسكراً مسلحاً ، وارتأت ان العالم كله مسؤول عن طرد اليهود من أوروبا . وانه لذلك يجب أن يلجأ الى فلسطين ١٠٠٠٠٠ يهودي .

وأما أن يدفع العرب الفلسطينيون دَين العالم فلم تستصوبه اللجنة المذكورة ، كما انها رأت أن فلسطين ليست لليهود ولا للعرب بل للعالم الديني . وإذ رأت أن العالم الديني ترك العرب يحتلون فلسطين ١٣ قرناً فامتلاكها أصبح مسألة فيها نظر . وكان قرار اللجنة الرئيسي أن «تبقى فلسطين تحت الانتداب أو تحت سيطرة هيئة الأمم المتحدة الى أن يتفق العرب واليهود على أن يعيشوا بسلام معاً ، أو انهم « يفهمون أن الخطة المرسومة ستنفذ بالقوة». على أن الانثروبولوجي (عالم تاريخ الجنس البشري) يرى أن مستقبل فلسطين سيكون ويلاً ونكبة إذا أخذ هذا القرار كسياسة سديدة . وكان في فلسطين دولة منتدبة مدة ٣٠ سنة تقريباً . وقد أنفق دافع الضرائب البريطاني فوق المئة مليون جنيه لأجل تنفيذ الانتداب . وكانت الأمور تتقدم فيه من رديء الى أردإ . ولا قوة على الأرض تكبح جماح سلالية اليهود .

في سنة ١٩٣٠ قال القاضي السويدي لوفغرن Lofgren قولاً صادقاً عن الانتداب الذي عهد به الى بريطانيا ، الانتداب الذي قيدها بأن تنفذ غرضين لا وفاق بينهما . فقد عمدت أن تعد وطناً لليهود في فلسطين ، وبالوقت نفسه لا تسيء للعرب بشيء . وقد ظنت أن أرضاً صغيرة كهذه لا بد أن تحوي شعبين يختلفان في السلالة والعقلية . والآن (في سنة ١٩٤٧) اكتشفت خطأها . فماذا إذاً على بريطانيا أن تفعل ؟ والعادة ان الحكمة تقضي عليها متى علمت خطأها أن تعترف به وتصلحه . في سنة ١٩١٧ لم تكن الوزارة البريطانية وحدها خاطئة . الصهيونيون أنفسهم لم يفهموا الموقف ، كانوا عميان عن حقوق العرب ، ظنوا ان الثروة والنجاح والثقافة، كل هذه التي سيأتون بها الى فلسطين ، تجعل العرب أن يفتحوا أبوابهم على مصاريعها لدخول اليهود اليها . فهذه الأمنية التي توقعوها كانت مفضية الى كارثات جسيمة . والموقف الحرج الذي يقفه اليهود ولا سيما الصهيونيون في فلسطين

اليوم يعطيهم فرصة لا مثيل لها . وهي أن يبدوا للانسانية اشارة كريمة في جميع العالم ، وذلك أن يعدلوا عن عزمهم أن ينشئوا دولة مستقلة في فلسطين ، وان يعترفوا بالحق الشرعي للعرب بأن فلسطين لهم وهم أهلها . وان يكفوا عن مطالبة بريطانيا «برطل اللحم الانتدابي»(١) الذي يجب أن يقطع من بدن العربي الحي ، وان يتفقوا مع الفلسطينيين على الحقوق والامتيازات التي يمكن أن يتمتع بها شعب هو ضيف (لا أصيل) ، وإلا فاني أرى خلاف هذا حرباً دموية طويلة الأجل . إن كنت خاطئاً في هذا الرأي فالمستقبل القريب يبحث عني(٢) هذه هي الحالة في سنة ١٩٤٧ كما تراها عين عالم بتاريخ الجنس البشري (أي انثروبولوجي) .

***

حاشية للمؤلف — اليوم قررت هيئة الأمم ان تقسيم فلسطين الى مملكتين يهودية وعربية . اليهود قبلوا التقسيم ، ولكن العرب رفضوه . وبريطانيا أذاعت ان انتدابها ينتهي في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨

حاشية المترجم — علمت بريطانيا خطأها في منح وطن قومي لليهود وعجزت عن اصلاحه . وتركها الانتداب ، والحرب قائمة بين العرب واليهود قبل ان تصل الى حل لعقدة ابليس ، كان خطأ أشر جداً من منح الوطن القومي لليهود . ان عملية انكلترا في فلسطين سلسلة أغلاط وقد رأت أنها أغلاط لا تصلح . فتركتها في أوخم نتائجها ، أي الاقتتال بين الفريقين وهي « تتفرّج » على الدماء البريئة تجري ، وستظل تجري . هذه سياسة الدولة العظيمة التي كان صعاليك السياسة ينسبون لها الحكمة والشطارة في السياسة . ونحن ننسب لها الآن التجرد من الضمير — لا شطارة ولا ضمير . ان أفظع أغلاط الانسانية أن يكون مصير الأمم بين أيدي أفراد جهلاء وذوي مطامع شخصية . ان عملية الانكليز هي نفس عملية قاطعي الطرق الذين يسطون على الشخص الواحد فيضربونه ويجرّحونه ، ثم يغتصبون منه ماله وثوبه ويعطونهما لشخص آخر . لو أخذوه لأنفسهم لقلنا ان الطمع والاجرام قد يبرران هذا . ولكن ان يعطوا ما يسلبونه لشخص آخر ليس منهم ، لا ندري ما نسميه غير الاجرام — فهل عند أحد كلمة غير الاجرام ؟ أين أنت يا باريء ، يا منصف ، يا مجزي .

في العدد القادم — هل اليهود سلالة أم شعب ؟

---

(١) اشارة الى رواية — تاجر البندقية لشكسبير التي يطالب فيها شيلوك اليهودي من مدينه الذي لم يستطع الايفاء رطل لحم من فخذه بحسب العقد الذي بينهما

(٢) عمر السير ارثر كيث الآن (٨٠ سنة)

التجديد

في فن الطرب

رحمة الله على عبده ، والشيخ يوسف المنيلاوي ، والشيخ سلامه حجازي ، وزملائهم من أئمة الطرب القديم الذي كان شائعاً في بلاد الأغريق ، واستمبول وتوابعها وبغداد، وحلب ، والشام ، ومصر ، وإيران ، وغيرها من البلاد الشرقية التي نبغت في فنّ الطرب نبوغاً لا نظير له . غفر الله لأولئك الأئمة العظام فقد اجترموا جريمة لا تغتفر إذ دوزنوا أوتار أعصابنا الموسيقية دوزاناً فنيّاً بديعاً . ولكنه بغير أسف لا يتفق مع الموسيقى الأفرنجية بتاتاً، ولا يمكن أذواقنا أن تستسيغها . وما حسبوا حساب ان المتطفلين على الفن سينتحلون الألحان الأفرنجية ويمسخونها ويدّعون أنْ مسخها تجديد في الفن . وقالوا هذا هو الطرب الجديد فخذوه وتمتعوا به ، ونحن الذين ألفنا ذلك الطرب القديم تنبو أسماعنا عن هذا الجديد، وتقزُّ أنفسنا منه ، وترتجّ أعصابنا ارتجاجات تزلزل مراكز الدماغ

يكاد ذلك الفن القديم الذي عاش لا أقل من ١٥ قرناً يتلاشى، ولا سيما في مصر ، ولم يبق عندنا هنا من يمثله ويحسن عزفه وغناءه سوى بضعة أشخاص معدودين، وصرنا نخاف أن يُحرَمهُ حفداؤنا حرماناً كليّاً ولا يعرفون عنه إلاّ خبره وبعض أنموذجات منه محفوظة في الاسطوانات (الأقراص) من أدوار ، وموشحات، وبشارف . بل صرنا نخاف أن هذه تفنى من الوجود أيضاً لأننا سألنا عن بعضها عند تجارها فقالوا لنا « البقية في حياتك » . واذا ابتغيناها في صحف العلامات الأفرنجية لا يمكن أن تعبر عن أنغامنا ولا سيما لأن بين الطربين بوناً عظيماً كما سنفسره فيما بعد .

لقد طغت الموسيقى الأجنبية علينا حتى تغلغلت في موسيقانا، وجعل أهل الفن عندنا يمارسونها بدعوى التجديد ، وما هو إلاّ اقتباس الفن الأفرنجي ومحاولة تطبيق الكلام العربي عليه . وقد قيل لنا والعهدة على الراوي ان بعض ذوي الفن الأفرنسيس سيقاضون

لدى محاكمنا الأهليـة أحد الفنانين ، وهو مصري ، لأنه انتحل ألحانهم بتعديل قليل فيها وادعاها لنفسه، فاذا هي ممسوخة مسخاً شنيعاً .

لا نفهم ما ذا يراد بهذا التجديد . ونحن نفهم أن المراد بالتجديد هو ابتكار أوزان جديدة في « التك والضم » في اصطلاح الموسيقيين . أو ابتكار أنغام طريفة ، لا اقتباس أنغام وألحان أجنبية ومسخها . ان موسيقانا تتجدَّد بطبيعة الحال من تلقاء نفسها مع الزمان بما يضاف إليها من الأغاني والموشحات والأناشيد وسائر القطع الموسيقية الجديدة من تقاسيم وموشحات وأدوار وبشارف ونحو ذلك . ولكن مهما أضيف إليها من هذه فقد لا يمكن أن يضاف إليها نغمات غير ما فيها لأنَّ ما فيها الآن لا يقل عن ٣٠ نغماً . وقد لا تحتمل مزيداً على الرغم من أن فيها من الدرجات وكسور الدرجات (النصف والربع والثمن فضلاً عن الدرجة الكاملة) ما يسهل لها أن تحتمل كل مزيد .

نقصد بالأنغام أو النغمات الفنون التي تتأتى من استعمال كسور الدرجات كالبياتي والرصد والحجاز كار والنهوند الخ .

فمن برم التجديد فليبتدع فيهـا أنغاماً جديدة غير هذه وأخواتها مما هو معروف ، لا أن يسرق من الألحان الافرنجية لحناً ويمسخه . ومهما برع في اقتباس الألحان الافرنجية فلا يستطيع أن يأتي بأفضل وأطرب من ألحاننا العربية ، لأن السلم الموسيقية الافرنجية ليس فيها الا الدرجة الكاملة ونصف الدرجة . ولا تستطيع أن تركب من حرفين (درجتين) ما تستطيع أن تركبه من أربعـة أحرف (٤ كسور الدرجات) ، من حرفي . م . د لا تستطيع أن تركب أكثر من « ندّ » و « دمّ » و « مدّ » و « دن » ولكنك من م . د . ج . ص تستطيع ان تركب مئات الكلمات . هكذا الأمر في الأنغام .

لما وافانا عصر الاذاعة اللاسلكية اعتقدنا ان الراديو سيكون داعياً لتنافس الملحنين في التلحين على أساس طربنا الذي ولدنا فيـه ورضعناه مع لبننا . كنا نتوقع ان يتبارى الملحنون عندنا في وضع تقسيمات جديدة وتوشيحات طريفة وأغانٍ مستطرفة على مختلف الأنغام من الرصد الى الأصفهان الى النهوند الخ . وان يبتدعوا لنا بشارف جديدة تضارع البشارف التركية، أو أجمل من بشرف رصد لعاصم بك، وبشرف عشاق لعثمان بك، أو شط

عربان ، وبشرف البياتي لاسحاق بك . ما سمعنا بشرفاً جديداً إلاَّ بشرف رصد للنابغة الأستاذ سامي الشوَّا ، بشرفاً رائقاً رقيقاً كأنه حديث الملوك ، هو حديث طرب من أحاديث سامي اللطيفة الممزوجة أحياناً بالمزاح . ويقال إن بشارف الأستاذ النابغة توفيق صباغ التي يدرِّسونها الآن في المعهد الموسيقي الملكي تضارع البشارف التركية .

لم نسمع في الاذاعة تنافساً في ألحاننا ، بل تنافساً في مسخ الألحان الافرنجية وتعريبها ، فأصبحنا كأننا نرى ريش طاووس في ذيل جحش . فذهب جمال الطاووس في سكروج هذا الحمار ، وأصبحنا ونحن نسمع هذه الألحان الممسوخة كأننا نسمع أنكر الأصوات ...

أجل لم نسمع في الاذاعة تنافساً في ألحاننا الشرقية المصرية على الخصوص وبدعاً فيها كما كنا ننتظر . بل صرنا نسمع « نشازاً » كما يسميه المطربون وأهل الطرب . لم نعد نسمع الانشاد التي كانت تنشدها كبيرة المطربات ونقيبة المطربين من « مالي فتنت ... » و « حقك أنت المنى والطلب » و « غيري على السلوان قادر » . و « فتكات لحظك أم سيوف أبيك » . وحلَّت « أخاف يكون حبك لي شفقة عليَّ » محل « أراك عصيَّ الدمع » وبين النظمين واللحنين أبعد مما بين الباسفيك والاتلانتيك » . وهل في الاناشيد أجمل من « أراك عصي الدمع » هذه نظماً ومعنىً ومغنىً ؟

جزاكم الله بصقَر يا بشر . أبدلتم نقيق الضفادع بطرب البلابل

تالله هل فقدتم الذوق أم ركبتكم جنَّة التجارة الموسيقية . فصرتم تتسابقون الى بورصة الاذاعة بين متطفلين وسماسرة ومستغنمين ومحاسيب

هذه هي شرعة الراديو الديموقراطية ان يتولى الأمر سماسرة الفن لا أبناؤه فيفرضون عليك ان تسمع هذا وذاك ، لا هاتيك ولا تلك ، فتسمع الطبل والزمر ونحوهما . ثم يدَّعون ان الاذاعة في الراديو ترقي الذوق الموسيقي في الجمهور كما هو مفروض وهو منتظر . ولكن ليس شيء من هذا .

لم نعد نسمع في الراديو إلاَّ كل من فتنه الغرور ، فظن ان الله وهبه صوتاً جميلاً لا نهيقاً منكراً ، واعتقد ان الطرب إنما هو في النهيق ، وجهل ان الطرب فن ، وان التلحين أسمى درجات الفن وانه أعظم قيمة من الصوت . وأنا حين أسمع دور « يلـي قوامك يعجبني » من سيد درويش نفسه (وصوته دون الاعتيادي جمالاً) أصفق له تصفيقاً حادًّا . واذا سمعت أم كلثوم تنشد (غيري على السلوان قادر) أصفق لأبي العلا الذي لحن القصيدة لا لها . أما الذين يظنون ان الله وهبهم الصوت الجميل فصاروا يرتجلون ألحان القصائد ارتجالاً ، لظنهم ان الابداع في الصوت ، ولا أهمية للحن . ولذلك صار كل من

تبلغه الواسطة مهما كان نوعها الى غرفة الاذاعة يرتجل نشيداً بحسب الهام غروره

سمعت مرّة في الاذاعة « صويّتاً » ينشد « نالت على يدها ما لم تنله يدي » . بقي نصف ساعة يردد كل بيت من الأبيات الأربعة الأول مراراً . ولكن (أجارك الله) على وتيرة واحدة . أنشد كل بيت من هذه الأربعة خمس مرّات أو ستًّا على الأقل من غير ان يغير في اللحن شيئاً ، فكان انشاد البيت الأخير كانشاد البيت الأول . ولو كان في منال يدي هو ومن أجاز له أن ينشدنا لصفعتهما . عفواً وعذراً .

كذا ابتدأت السيدة أم كلثوم في أول عهدها تنشد «سمحت بارسال الدموع محاجري» فكانت تنشد كل بيت كالذي سبقه من غير تفنن أو تلحين . فقلنا لها في مقال « سبحان من أبدع وسوّى يا أم كلثوم . الصوت لم يبدع الله أجمل منه . ولكن التلحين مخدر . يا سيدة الطرب ، ليس الطرب صوتاً فقط بل هو فن أولاً . فتعلمي ما لحنه أبو العلا والقباني وسيد درويش وداود حسني، ثم اطلعي على المنبر . فنقول الله اكبر» . ففعلت، ثم اسمعتنا من القصائد الملحنة ما يليق أن تنشده مع الملائكة حول عرش الله تعالى . ثم ما لبثنا أن صرنا نسمع ألحان التجديد . وأغفلت كل ذلك القديم فنقمنا على كل من لحن جديداً وغنى جديداً . أليس لهؤلاء المغنين والملحنين ذوق .

لحن أحدهم رواية «عائدة» العربية ، فمجها الجمهور . فاضطرت ادارة الأوبرا أن تكلف الأستاذ زكريا أحمد أن يلحنها على المنهاج العربي . فنجحت .

يقولون لك إن هذا ما يريده عامة الشعب . تبًّا لكم ! أنتعلم الذوق من عامة الشعب أم أن المراد بالاذاعة أن نرقي ذوق الشعب — كذبوا لا يريد هذا الاّ المتطفلون الذين رأوا انه صار للغناء ثمن بفضل اللاسلكي . فصاروا يتطفلون ويلحنون ويغنون وهم بلا ذوق موسيقي .

الشعب ابن طرب ولكنه ليس ابن فن . فما نقدمه له يستسيغه بقدر. وأخيراً تدوزنت أوتار أعصابه السمعية على مسوخ طرب التجديد هذا . فالذين نشأوا على هذا الطرب ظنوا أن هذا هو المثل الأعلى في الطرب . ولو سمعوا القديم لتغير رأيهم . والذين كانوا يسمعون القديم لعنوا الجديد ومن أدخله على عالم الطرب .

لا يستحسن مما تغنيه أم كلثوم إلا ما كان فيه شيء من القديم .

نسأل المجددين هل يمكنهم أن يلحنوا دوراً أو موشحاً ؟ إذن فليسوا أبناء فن وما هم موسيقيون .

عندنا في موسيقانا الشرقية أو بالأحرى العربية ثروة طرب لا تضاهيها ثروة الأمم

الأخرى . ولكن بكل أسف انها تحتضر الآن . تكاد تذهب وتدفن غير مأسوف عليها لأنه ليس في الجيل الحاضر من سمعها وعرفها حتى يترحم عليها .

قال لنا بعض أساطين الطرب القديم أن في عالم الموسيقى العربي فصل عزف وغناء يشغل نحو ٣ ساعات يسمى « فصل العطاش » ، يشمل جملة من نخبة التواشيح والمقطوعات الفنية التي لا تضاهى . وقد عرفنا الآن ممن يعزفونها ويغنونها ثلاثة : هم الأساتذة الكبار سامي الشوّا ، وأخوه فاضل ، وجميل عزت . ولا ندري إن كان يوجد غيرهم هنا في مصر . ولكن يقال إن في حلب الشهباء بعضاً آخرين يعزفون ويغنون هذا الفصل . فاذا لم يتعلمه بعض موسيقي مصر وغيرها ، ذهب بذهاب ذلك البعض ، أطال الله أعمارهم . حبذا لو كان عازفو هذا الفصل يحيون ليلة طرب في الأوبرا أو في أي مسرح آخر كبير ويعزفونه ويغنونه ، فكان محبو الطرب يدركون قيمة التجديد الى جنب قيمة هذا القديم المنبوذ .

صرنا نخاف أن يمضي هذا الجيل ولا يبقى للجيل القادم الاّ بعض الطرب الجديد وهو ممسوخات الأجنبي والقديم ، فيصبح الجيل الجديد وليس عنده موسيقى تمكنه أن يفتخر بها .

رأينا الاذاعة محتكرة فلا يصل اليها إلا أشخاص لهم من أصدقائهم ومن وسائلهم غير المحمودة أحياناً سندات يتوسلون بها . فلا نسمع إلا القليل من أهل الفن ، والكثير من الطفيليين . وأما معظم أهل الفن النابغين فلا يلتفت اليهم . وقد روى لنا أحد هؤلاء النوابغ أنه دعي للاذاعة وطلب اليه أن يعزف ويغني للتجربة والامتحان ، مع أنه معروف جيداً ، وكان يسمعه في حفلات خاصّة أمراء ووزراء وكبراء ، وكانت الاذاعة تذيع بعض اسطواناته ، فمن قلة الذوق أن يستدعى ليُمتَحن . ولكن مجلس الاذاعة الأعلى رام ان يطرب ساعة ، وبعض الساعة ، حتى ضجر الرجل من امتحانهم السمج فسكت . ثم قيل له . غداً ان شاء الله يصلك خطاب لكي تأتي وتمضي العقد . وقد مرّ الى الآن ١٧ سنة على هذا الوعد ولم ينجز العقد .

وقد سئل يوماً أحد رجال الاذاعة : لماذا لا تستدعون فلاناً لكي بذيع شيئاً من تحف الفن . فقال ان « فلاناً غير محتاج » . فكأن الاذاعة تكية للمحتاجين ، لا مصدر اذاعة للجمهور المعطشى للطرب المحبوب .

وهكذا يبقى الشعب محروماً فطاحل الفن ، لأن لا رزق إلاّ للمحتاجين . والحكومة تتقاضى في العام ٣ أرباع المليون جنيه ضرائب على آلات الراديو أفلا تكفي للمحتاجين ولأهل الاذاعة .

ان مصلحة الاذاعة عندنا مريضة تحتاج الى علاج .

أنا والنور

قد أطلّ البدر من كوّته   باعثاً أجلى شعاع وسناء
من شبابيك بلون أصفر   وسط كل الكون والكون بهاء
أرسل النور على الأرض التي   سطع النور عليها بالضياء
أرسل الناس له أحلامهم   حين طلّ البعث في بث الرواء(١)
وأنا في النور أبدو باكياً   نادباً حظي في أرض خواء
ليت هذا النور قد عززني   بشعاع مثل آمال السماء
باكياً في الكون عندي زهرة   ذبلت في شبكة النور الوضاء(٢)
حاملاً آمال قلبي في يدي   أين عمري ضاع مني والولاء
هي حزمات(٣) من النور الذي   بثّ في الكون مع الكون العفاء
ذبل الزهر واني صامت   أنظر الآمال تترى في الخفاء
أبصر الآمال في حدّتها   عند تيار له كل الجفاء
هو ذا النور له ألوانه   وبه عنوان حبّ وعزاء
كنت في صبحي أرنو مثلاً   ما أرى الأمساء والكراء(٤)
صرت في ليلي لا أبصره   من صدى الأظلام في هذا الطلاء
ذبل الزهر وعندي جدث   أنظر الحفّار من هذي السماء

فيصل عمران القاضى

---

(١) تنبه الناظم الى فعل طل في البيت الرابع والى وزن الصدر في البيت التاسع
(٢) الوضاء بتشديد الضاد ينكسر الوزن (٣) هذا الصدر مكسور الوزن
(٤) هذه ملاحظات رئيس التحرير فيرجو منك ألا تغتب اذا امتنع عن نشر شعر كهذا

منابع النيل

حسب عقيدة قدماء المصريين وتقاليدهم

لأنطون زكري

— ٣ —

بحث العالم القديم والحديث في منابع النيل

فوق المزايا العلمية والصناعية التي امتازت بها مصر في قرونها الأولى قرون العظمة والأسعاد والتفوّق الباهر على سائر الأمم ، خصّ الله هذا الأقليم بالنيل المبارك ، وهو أكبر المنن الألهية التي جعلت كافة مواهب البشر أمامها لا تكاد أن تكون شيئاً مذكوراً . فالنيل هو ينبوع الحياة ، ومهد الأرتقاء ، ووسيلة الحياة الخالدة ، ورغد العيش المزيد . فكلما أمعن الباحثون في التفكير بما تقله أرض مصر من العجائب الصناعية ، والهياكل والآثار والمباني التي قاومت العصور ظاهرة فوق بعض المواطن ، وتحت بطون الأرض وفي غيرها ، يرتد إليهم صدى مجهوداتهم الفكرية حائراً ذاهلاً ، كلما رأى النيل يتماوج بأعاجيب المناظر، ويتدفق في مجاريه بأوفر الخيرات ، على بلاد أسعدتها الطبيعة بأن يفيض عليها من كنوزه وخيراته، ما جعلها تمتاز بسعة الخصب وقوّة النماء . وإن أهاليها كلما جدّوا في الأعمال الزراعية ، جادت عليهم بأضعاف ما كانوا يتمنون في مبادىء أعمالهم ، فينشطون على الدوام الى التوسع في استخدامها ، بقدر ما تشجعهم عليه سعة الآمال ، فلا تضنّ الأرض بما استودعت من المزايا ، ولا تكل السواعد ولا الهمم عن اجتناء أطيب الثمرات، واحراز الأرباح الوافرة . وهكذا كان المصري وبلاده في دور نشأته الأولى وسعادتها الماضية كل على صاحبه يجود بأقصى المنح ، فتجدد للأراضي زيناتها النباتية ، وتتنوّع لأقوام الشعب موارد ثروتهم المالية .

كانت مصر بهذا الاعتبار مصدراً للمعجزات العقلية، لأن خصائصها الشهيرة، ومميزاتها المدهشة، لم تجتمع في غيرها من الأقاليم ، وكفى أن منابع النيل وأدوار فيضه وتطوّرات انتقاصه واستمرار مجاريه على حالة لا تعوقها الرواسب ، ولا كميات الرمال ، التي تذروها الرياح في المناطق ، قد جعلت ألباب الباحثين حيارى . وطالما عاق الأقدمين الوصول الى

حل مسائله العويصة ، ولكنهم وقفوا أمام أقاويل وآراء كل فريق يدلي فيها بحجته التي يؤيد بها رأيه على رأي مناظريه ، وامتدت بالقوم العصور الغابرة بدون أن يصلوا في هذه النقط الى تمحيص نهائي يرفع النقاب ويزيل الشكوك .

وروي في عصر « فايتون » الخرافي رواية أشبه بالخيال منها بالحقيقة ، إذ قيل فيها إن النيل كأنه لما رأى قرب الشمس من الأرض خشي من احتراقه بلهيبها ، فأخفى رأسه في آخر الكرة الأرضية . وإلى القرن السابع عشر ق . م لم تصل مباحث المؤرخين الى رأي سديد في حقيقة منابعه ومبادئها .

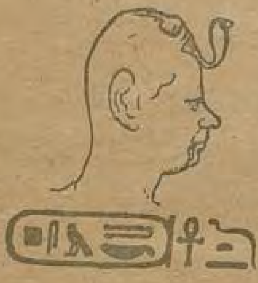

١٠ — رسم بسامتيك الاول وتحته اسمه بالهيروغليفي

وقد أفرغ الفراعنة مثل سيزوستريس (رعمسيس الثاني) وغيرهم جهداً كبيراً من عنايتهم للوقوف على حقيقة الينابيع فما استطاعوا . ولما قدم الى مصر هيرودوت ، وابتدأ مباحثه عن الينابيع لم يرشده أحد ، وذكر أن بسامتيك (رقم ١٠) أحد ملوك الأسرة ٢٦ ، ألف بعثة مكوّنة من (٢٤٠٫٠٠٠) مائتين وأربعين ألف رجل ، وأمدّها بكل ما تحتاجه لتسهيل العقبات في مسيرها والوسائل الصناعية الأخرى في نقل الأحمال والمؤن والوسائل الدفاعية إذا صادفها شيء من ذلك ، وترتيب وصول المعلومات منها إليه عن الأقاليم التي تجتازها ، والمناظر التي اهتدت إليها ، وعجائب الأودية والقبائل ، وأمدّها بسعة الأغداق والمعونات الكبرى لتتغلب بالبذخ والسخاء والمعدات الكثيرة على انجاح مأموريتها ، فقضت فيها بعض السنين ، وعادت من حيث أتت ، ولم تدوّن غير اكتشافات جغرافية عن بعض المواقع في تلك المجاهل ، ثم استحكمت هذه الفكرة لدى اسكندر المقدوني وقمبيز ، ورتب كل منهما في عهده رحلة خاصة ، وأمدّها بأساليب أقرب في الوصول الى الغاية المطلوبة ، وأسهل منالاً في الاستكشافات والتوسع في المعلومات ، فعادت كباقي البعثات الماضية راضية من الغنيمة بالإياب .

وفي القرن الثالث ق . م . في عهد بطليموس إفرجت ، تكلم المؤرخون عن منابع النيل ، فكانت آراؤهم متطابقة مع المعنى الذي أورده الشاعر الروماني في كتابه المعروف « بالفرساي » (Versailles) على لسان يوليوس قيصر أن النيل يخفي رأسه عن الأنظار كحسناء لا تبرح عن دلالها مهما أطال إليها المشوق الضراعة والاستعطاف ، فالنيل يستمر في مجاريه فياضاً متدفقاً بينما أفكار الباحثين تكدّ وتجهد وترتد بالملل والضعف .

وفي القرن الأول ق . م . أبدى « جوبا » ملك « موريتانيا » رأيه عن منابع النيل ، وتبعه فيه « پلين وميلا والمؤرخ ديمون كاسييس » وهو أن منابع النيل القاصية لتعمقها تحت الصخور والتجاويف العميقة بتلك الأودية والوهاد ، لا يستطيع أفراد البعثات التي تنتدب من أجله خوض غمار تلك المياه . وفي هذه المنابع الفجوات التي تتفاوت بين الضيق والسعة والمنعطفات الطويلة ولا تستطيع إلاّ إذا تطوّعت بحياتها للخطر الذي لا يحتمل معه عود بعض أفرادها لينبىء الباقين عما رأت عيناه ، ووعته ذاكرته من هذه المناظر وعجائب تكوينها .

وقال بطليموس الجغرافي المولود في القرن الثاني ب . م . إن منابع النيل تلتقي في بحيرتين كبيرتين بأنحاء خط الاستواء . ولا يستطيع الغرباء التجول في ما وراءه ، لأن الأذهان ممتلئة بالروايات المنفردة عن وجود الوحوش والحيوانات الضارية التي تفتك بكل من أراد المسير في غاباتها أو مغاورها .

جاء العرب بعد اليونان خلفاء لهم في الاستعمار ، وحكموا مصر واستولوا على بلاد النوبة وغيرها من البلاد المجاورة لمنابع النيل ، وأحكموا صلاتهم التجارية والسياسية مع السودان وشعوب أفريقيا الجنوبية ، واتخذوا هذه التمهيدات وسيلة لوصولهم الي ما عجز عنه أسلافهم في تلك الأقاليم المجهولة .

ومن مشاهير العرب الأجلاء الذين صرفوا وقتاً مديداً ، وعزماً صادقاً ، في الوقوف على معلومات صحيحة بشأن منابع النيل الامام الشهير أحمد بن محمد بن عبد السلام المنوفي نسبةً الى منوف في نهاية القرن التاسع الهجري . وكان اماماً في العلوم الاسلامية ، وتواريخ الأمم ، احترمه كثير من العلماء ، وأئمة البحث ، وعظماء الشعوب ، ونقلوا عنه في مؤلفاتهم . وكان يثبت لتلامذته أن العلم الصحيح والتقوى توأمان ، فمن لم يزدد عقله بقوة الايمان ، الذي هو فوق نواميس الطبيعة ، يكون دائماً في تردد الحيرة والضلال . دوّن هذا المؤلف الشهير كتاباً عنوانه « الفيض الجديد في أخبار النيل السعيد » ، وتوجد منه نسختان خطيّتان ، إحداها في دار كتب مرسيليا والثانية في دار الكتب المصرية بالقاهرة ، تكلم فيه عن منابع النيل وأصله واستمداده وطوله وعرضه .

ثم جاء نابليون مصر مع بعثة علمية بحثت في أحوال البلاد وأمورها ، ودوّنت عنها مؤلفات كثيرة ، ولكنّها لم توفّق للبحث عن منابع النيل .

وفي سنة ١٨١٩ أرسل محمد علي باشا بعثته العلمية الشهيرة يرأسها « جالياردو » المهندس الفرنسي ، فسافر الى الخرطوم ، وقال في مذكرته إن منابع النيل تبتدىء من جبال القمر .

وفي سنة ١٨٥٦ توسّع في الاستكشاف كل من الباحث « برتون وبيك وبيكر » إلى ما خلف بحيرتي « فكتورية والبير نيانزا » وتحقق أخيراً أنهما أهم المنابع التي يتكوّن منها النيل ، وقد ساعدت الاكتشافات الأخيرة رجال اوروبا على التجوّل في أواسط أفريقيا ، واستطاعوا الوصول الى قول عزّزوه ببراهين الاكتشافات والرحلات المتوالية في هذه الأقطار ، وكلّل النجاح سعيهم ، كانوا مصداقاً للمثل القائل بأن من لازم السير في الدرب وصل الي مرحلة النجاح .

— ٤ —

رأي العرب في منابع النيل

ونثبت هنا ما جاء في كتاب « الفيض الجديد في أخبار النيل السعيد » تأليف الشيخ احمد بن محمد بن عبد السلام المنوفي في ذكر منابع النيل

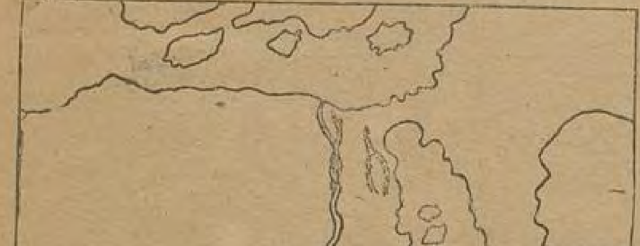

رقم ١١ — رسم مجرى النيل

حسب خريطة بطليموس المحفوظة بدير جبل اوتوس

ذكر المؤرخون في أصل منبعه من مبتداه الي منتهاه أقوالاً ، فقال أكثرهم ومنهم الحافظ بن كثير في تاريخه الكبير أن مبتداه من الجبال القُمْر (بضم القاف وسكون الميم) أي البيض ، ومنهم من يقول « جبال القمر » (رقم ١١) (أي بفتح القاف) بالاضافة الى الكوكب وهي غربي الأرض وراء خط الاستواء في الجانب الجنوبي . ويقال إنها صخور تنبع من بينها عيون ثم تجتمع من عشرة مسيلات متباعدة ، ثم تجتمع كل خمسة منها في بحيرة ، ثم تخرج منها أنهار ستة ، ثم تجتمع كلها في بحيرة أخرى ، ثم

يخرج منها نهر واحد وهو النيل ، فيمر على بلاد السودان بالحبشة ، ثم على النوبة ومدينتها العظمى « دنقلة » ، ثم أعلى السودان ، ثم تظهر على ديار مصر ، ويحمل اليها من زيادات أمطارها ، ويجرف من ترابها ، وهي محتاجة إليها ، لأن مطرها قليل لايكفي زروعها وأشجارها ، وتربتها رمال لا تنبت شيئاً حتى يجيء النيل بزياداته وطينه ، فينبت فيها ما يحتاجون إليه ، وهي من أحق الأرض دخولاً في قوله تعالي : « أو لم يروا أنا نسوق الماء الى الأرض الجرز لنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون » ثم يجاوز النيل مصر قليلاً فيفترق فرقتين عند قرية على شاطئيه يقال لها « شطنوف » وهي من عمل القليوبية ، فيمر الغربي منه على « رشيد » ويصب في البحر الملح ، وأما الشرقي فيفترق أيضاً عند جوجر فرقتين » يمر الغربي منهما على دمياط من غربيها ، ويصب في البحر الملح ، والشرقي منهما يمر على « أشمون » طناح ، فيصب هناك في بحيرة شرقي دمياط يقال لها بحيرة « تنيس وبحيرة دمياط ، وهذا يعد بعد عظيم من ابتدائه الى انتهائه ، ولهذا كان ألطف المياه .

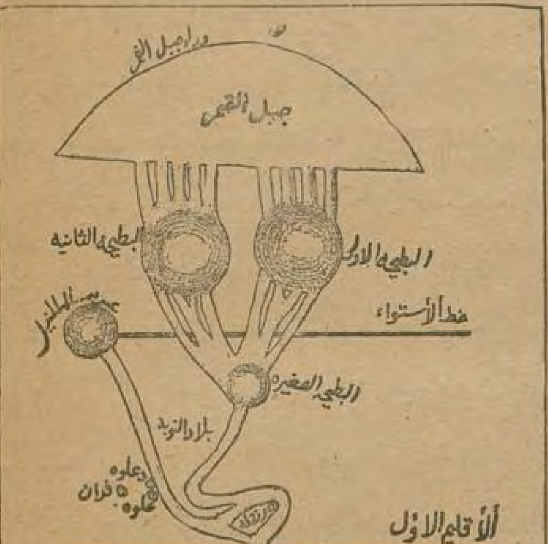
وراء جبل القمر
جبل القمر
البطيحة الثانية
البطيحة الأولى
خط الأستواء
البطيحة الصغيرة
بلاد النوبة
دنقلة
علوة
علوة
فران
الأقاليم الأول
أسوان
قوص
أخميم
الاقليم الثاني
أسيوط
الأشمونين
الفسطاط
الأقليم الثالث
الإسكندرية
دمياط

رقم ١٢ — خريطة وادي النيل لبطليموس نقلاً عن الخوارزمي

(وقال ابن العتيم في كتاب الهدى) : النيل أحد أركان الجنة ، أصله من وراء جبال

القمر رقم (١٢) في أقصى بلاد الحبشة من أمطار تجتمع هناك ، وسيول يجر بعضها بعضاً ، فيسوقه الله تعالى الى الأرض الجرز التي لا نبات بها ، فيخرج به زرعاً تأكل منه الأنعام والأنام . ولما كانت الأرض التي يسوقه سبحانه إليها ابليزاً صلبة ، إن أمطرت مطر العادة لم ترو ولم تتهيأ للنبات ، وإن أمطرت فوق العادة أضرّت الناس والمساكن ، وعطلت المعائش والمصالح ، فأمطر سبحانه البلاد لعبيده ، ثم ساق تلك الأمطار الى هذه الأرض في نهر عظيم ، وجعل سبحانه زيادته في أوقات معلومة على قدر ري البلاد وكفايتها . فاذا روى البلاد وغمرها أذن سبحانه بتناقصه وهبوطه لتتم المصلحة بالتمكن من الزرع .

وقال قدامة: « إن منبع النيل في بلاد القمر وراء خط الاستواء من عين تجري منها عشرة أنهار كل خمسة منها تصب في بطيحة في الاقليم الأول ، ومن هذه البطيحة يخرج نهر النيل » .

قال صاحب كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، إن هذه البحيرة تسمى بحيرة « كوري » منسوبة الى طائفة من السودان يسكنون حولها متوحشين ، يأكلون من وقع إليهم من الناس . ومن هذه البحيرة يخرج نهر النيل . وإذا خرج النيل منها يشق بلاد « كوري » ثم بلاد « قنة » طائفة من السودان أيضاً ، وهم بين « كانم والنوبة » ثم يغوص في الرمال ، ويمر تحت الأرض مكتوماً من الجنوب الى الشمال ، ثم يظهر ببلاد النوبة فاذا بلغ مدينة « دنقلة » عطف من غربيها الى المغرب ، وإنحدر الى الاقليم الثاني ، فيكون على شاطئيه عمائر النوبة ، وفيه جزائر لهم متسعة عامرة بالمدن والقرى ، ثم يشرّق الى الجنادل ، وإليها تنتهي مراكب النوبة إنحداراً ، ومراكب الصعيد الأعلى صعوداً ، وهناك أحجار لا تمر المراكب عليها إلاّ في أيام زيادة النيل ، ثم يأخذ الى الشمال ، فيكون على شرقيه مدينة اسوان من بلاد الصعيد الأعلى ، ثم يمر بين جبلين هما مكتنفان لأعمال مصر أحدهما شرقي والآخر غربي حتى يأتي مدينة مصر وهي الفسطاط الذي بناه عمرو بن العاص فيكون على شرقيه ، فاذا جاوزها انقسم كما تقدم ، قلت أي في قوله ، فيفترق فرقتين عند قرية على شاطئيه يقال لها « شطنوف » الى آخر ما ذكره .

[يتبع]

سر الوجود

(من ذكريات الصبا)

تبارك هذا البها يا ملك   عليه ازمهرّت عيون الفلك
تكاد، وقد جفت غيرة،   تغور قلى في قرار الحلك
جمالٌ يحار به المُعجَبون   فما أتفه القول « ما أجملك »
توسمت أمس بلحظك عطفاً   كأنك تحيي محبّاً هلك
أقصداً تعطفت أم صدفة   وعللت قلباً لكم دلّلك !
فلله يوم اللقاء المفاجىء   ومؤتلق الحسن قد سربلك
تزاحم فيه طوال الدهور   وحلت رحاب الفضا منزلك
وانصت مجرى الزمان ليسمع   حكمك في مسلك قد سلك
فقد جمع الحب في واحد   كما جمع الحسن والله لك

* * *

لأنت من الكون جوهره   وفي لب مركزه أنزلك
ونبض فؤادك فيض القوى   وخلْجاته جذبات الفلك
وحول بهاك تدور الدراري   وتزحم زُهرُ السما محفلك
حجاك الضياءُ ومن مقلتيـــك يشع سناه الذي جلّلك
إذا كنت يقظان ضاء الكيان   وان كنت غفلان ساد الحلك
تعاظم مجدك في دهره   وأفعم قدسُ النهى هيكلك
تخيل طيفك فكرُ الوجود   وفي صحف الضوء قد مثّلك

رسوم خيال تطوف الفضاء   فأيان كنا نرى أمثلك
فماذا الذي بعد ذا تبتغي   من الدهر والدهر لن يخذلك

* * *

أيا عادل القد في شفتيك   القضاء بأمري ، وما أعدلك
فؤادك يجفو وتشكو فؤادي   جعلت فؤاد الهوى فيصلك
توالت أدلة حبي فكيف   تراها وتيهك قد ضللك
أيا نور أسرار هذا الكيان   بسر فؤادي ما أجهلك
لكم شب من ناظري لهيب   غرامي اليك وما أشملك
وكم أفصحت نظراتي الحديث   وكنت أحاذر أن أسألك
وأي بيان يبين الغرام   وموحي البيان غرامٌ ملك
وما حيلة الشمس ان لم تشاهد   سناها ، ومجدك قد أشغلك
جرت بيننا باسمات الأماني   فألفيت جدّي بها مهزلك
تساقى الزمان أحاديثنا   وأفرط مستعذباً منهلك
فسجل منها عجيب شجوني   وفرط دلالك كي يعذلك
كواه لهيب جواي ولولا   برود فتورك كان هلك
ترى فى سجل الزمان محبّاً   اليك طريق الهدى قد سلك
تحمّل من وجده صابراً   بايفاء دين الهوى أمهلك
عسى عطفك الأمس كان وفاء   فوالله أحسبه منّة لك
فدعنا نقضي الحياة نطوف   بنعمى المحبة كل فلك
ومنك الدلال ومنك الرضى   ومني الهوى والجوى ياملك

(ف... د)

تقدم الطب

في عهد الفاروق العظيم

ان عصر جلالته هو عصر ارتقاء وتقدم ورقي في جميع مرافق الحياة الأدبية والعلمية والطبية والمادية من جميع نواحيها الاجتماعية والفكرية والصناعية إذ ارتقت العلوم بعهده ارتقاء كبيراً في مصر وفي كل أقطار العالم وكان للطب النصيب الأوفر في هذا التقدم والرقي. وهنا يعجز القلم عن ذكر جميع ما ابتكره العلماء والبحاثة في مختبراتهم وتجاربهم الطبية حتى أوصلوا علم الطب الى المقام السامي الذي تلقيناه بفضل جهودهم ونبوغهم. وان استعرضت ما كان عليه علم الطب عند حصولنا على الدكتوراه أي منذ ٤٥ عاماً وما وصل اليه الآن تبين لنا الفارق العظيم بين ما تلقيناه من الدروس عن أساتذتنا وما وقفنا عليه من ترددنا على مستشفيات باريس ومعاهدها ومختبراتها الطبية البيولوجية والكيمائية والبكتريولوجية والتجارب على الحيوان، وما نقف عليه كل أسبوع من مطالعة المجلات العلمية والأبحاث الفذة التي تطلعنا على كل مستحدث وعلم طريف عن علماء العالم المتمدن وأبحاث المؤتمرات الطبية الدولية التي هي أوفى خلاصة لتقدم هذا العلم من الجهة البيولوجية والاكلينيكية والعلاجية.

ولا يمكن في هذه العجالة أن أذكر كل التحولات الفسيولوجية وأبحاثها التي ارتقت ارتقاء فائقاً لمعرفة سر وظائف الأعضاء وارتباطها ببعضها، وحقيقة افراز الغدد في حالتها السليمة وعند اعتلالها وتأثيرها على بقية الأعضاء وارتباط كل غدة بعضو أو أعضاء لتوازن عمل الجسم ودرجة الاحتراق فيه ونشاطه وتوازن عمله أو اختلاله واضطرابه وكل موضوع من هذه المواضيع المتشعبة النواحي يحتاج الى درس خاص أو دروس أتيت على ذكرها في محاضراتي التي القيتها بمصر في مختلف الهيئات.

والفضل للفسيولوجيا يعود الى اكتشاف الانسولين الذي اكتشف عام ١٩٣١ وهذا ما ذكرته عنه في إحدى محاضراتي بالافرنسية :

إن اكتشاف الأنسولين كان له دوي وصدى عظيم في الأندية العلمية والاجتماعية وكان

اكتشافه فاتحة عهد جديد أدخل العلاج في طور جديد من أطوار علاج مرض السكر الذي كان قبل اكتشافه في حالة جمود تام وهذا الاكتشاف أحيا آمال المرضى وأنعش نفوسهم.

والأنسولين وان سار بالعلاج خطوة عظيمة الى الأمام غير أنه لا يشفي السكر مائة بالمائة بل يحسن حالته تحسيناً بيناً ويعين المريض على توازن تغذيته وتعادل وزنه ويرفع قواه ويقيه من عثرات الداء ويقيه من المضاعفات الخطرة ويساعده ليعيش طويلاً ، ومن شأنه أن يضعف ويخفف كمية السكر بالدم ويمنع التسمم الحمضي ويساعد الكبد على الاحتفاظ بالمادة السكرية « الجليجوجين » ويثبت السكر بالأنسجة وفي خلايا الجسم ويقلل افرازه بالبول ويصبح المريض بحالة تغذية متوازنة حسنة . كانوا يخافون سابقاً من ازالة السكر من بول المريض حذراً أن زواله يسبب أضراراً فهذا الخوف لم يعد له محل الآن .

نعم أنه يخشى من استعمال الأنسولين بدون مرجع علمي صحيح خصوصاً مقدار السكر بالدم وبحث بيولوجي موثوق به .

إن الأنسولين يمكن المريض من ملافاة التسمم الحمضي الأسيدوزي. وقد درسنا أخطاره ومضاره والكتاب يقدم لمن يطلبه الخ .

والأمر الذي ينقصنا بمصر ولا يهتم به عدد عظيم من الناس حتى المثقفين منهم هو الأبحاث البيولوجية الدقيقة في البول والدم التي تدلنا حتى عند غير المرضى دلالة واضحة على تكييف وظائف الأعضاء الجوهرية بالجسم لاستدراك الخلل المتوقع في أعضاء معينة . لأننا إذا اهملنا هذا الخلل الطفيف فهذا يتحول مع الوقت الى مرض أو علة دائمة يصعب التغلب عليها . وهذا ما نبهت اليه أفكار الأطباء والمثقفين مراراً بمحاضراتي . وهنا أسرد مثل واحد عما هو حاصل هنا بين مئات أو ألوف من الناس .

معروف ان الارثريتسم « حالة الأملاح » تعرض مع مضي الزمن الجسم لتصلب الشرايين ، ومهما كان سبب تكاثر الأملاح بالدم فسببها بالأكثر المأكولات الغليظة ومعاطاتها بدون انتظام، وعدم الرياضة والركون الى الراحة والجو الحار والرطب الخ .

والشيء الذي يفوق كل هذا هو اضطراب في هضم الامعاء ، ولا يوجد في الطب عمل فسيولوجي دقيق ومتشعب النواحي وطريف مثل عمل الامعاء وهضمها الغذائي . وسوء الهضم فيها لأسباب جوهرية مثل بطء الحركة فيها والامساك والالتهابات على أنواعها والدسنتيريا الأميبية وغير الأميبية — كل هذا يدفع الى الكبد عن طريق الامعاء أجسام بيولوجية غير مستوفاة الهضم والتحويل والنقاوة . فهذه الأجسام التي لم تستوف الشروط الكيمائية والتحويل الصحيح تهيج خلايا الكبد وتضعف عمله مع الأيام . وقد يقاوم

زمناً طويلاً ويحتمل هذه الأجسام ويسعى لهضمها وتوزيعها واحتراقها غير انه مع الزمن تضعف مقاومته ويقصر في عمله .

وفي حالة العجز يوسل الى الدم مواد غير مستوفية التحويل غير نقية كيماويًّا فتتكاثر في الدم وتزداد مع مضي الزمن فتثقل وزن الدَّم. وبعد أن يتحملها هذا مدة طويلة يحاول التخلص منها ، فترسب هذه الأجسام أولاً وقبل كل شيء في أنسجة الشرايين الكبرى وتتركز فيها تدريجاً مع الزمن حتى تحوّل أنسجة هذه الشرايين تحويلاً ظاهراً فتفقد نعومتها وملاستها ، وتصبح قاسية خشنة تتعرّض مع الوقت الى ضعف مرونتها وثخانة أغشيتها الى التصلّب الذي ان ترك وشأنه يتحوّل الى مرض يصعب شفاؤه . وبعد ذلك يكون مصدر الأعراض القلبية ونوبات الذبحة الصدرية العادية التي تتفاوت بين أعراض طفيفة تتردّد بين الحين والآخر . ثمّ تشتد رويداً حتى تصبح مزعجة شديدة وخطرة .

وكل هذا كان بالامكان استدراكه وملافاته ، لو انتبه المريض الى العناية بما يأكله ويشربه وينظم حياته ومعالجة أمعائه . ويتوقف تحول أنسجة شرايينه الكبرى في بدايتها كي لا تصبح مصدر انزعاج شديد ، واضطراب وبيل على هنائه وراحته . ولا يمكن أن أذكر بدون تأثير عظيم كثرة الوفيات بمصر بالأعراض القلبية خصوصاً بالذبحة الصدرية ، وسدادة القلب التي كان بالامكان استدراكها قبل فوات الأوان ، لأنه بعد حدوثها ووصولها الى الحالة النهائية التي ذكرناها لا يمكننا إتقاء شرها إلاّ بصعوبة كلية وبنجاح محدود لسوء الحظ أو بدون نجاح .

فالطب الواقي بمصر ان لم يكن مفقوداً فهو بحكم المفقود ، وهو مهمل حتى عند عدد عظيم من المثقفين فضلاً عن العامة . وكان يجب أن يتبوأ المقام الأول قبل الوصول الى المرض ، وقبل الاصابة العضوية ، وتحوّل الأنسجة واضطرابها ، وتضعضع وظائفها الفسيولوجية الطبيعية السليمة . وهل يفوتنا أن نذكر بأسف شديد ان عدداً عظيماً جدًّا من كبار المصريين الذين يشار إليهم بالبنان مصابون بأمراض عضال يشقون بمعالجتها وتخفيف شدتها بعد أن أضاعوا وقتاً طويلاً ثميناً لاتقاء شرها .

نعم أن الطب تقدّم تقدماً كبيراً في عهد الفاروق العظيم . وقد توصل العلماء الى اكتشاف السلفاميد وهو مركب كيماوي إصطناعي اشتق منه تراكيب عديدة مع فوارق كيمائية بسيطة . وهذه المستحضرات تضعف تفاعل الميكروبات وتوقف تولدها ونموها وتبطىء افرازها ، وتعطى نتائج باهرة في النزلات الوافدة ، والالتهابات الشعبية الرئوية ،

واصابات الزور والتسمم الستربتوكوكسي ، والستافيلوككسي ، والبنوكوكي ، والجونوكوكي والتهاب الزور العفني .

واستعماله يعطي نتائج باهرة في هذه الحالات لكنه يؤثر على خلايا الكبد عند ضعاف الكبد اذا أُخذ بجرعات كبيرة، ويخفف أحياناً الأفراز البولي . وقد تلقته العامة والخاصة بسرور عظيم، حتى ان الناس أكثروا من استعماله استعمالاً يفوق الحالات التي يجب علمياً الاعتماد عليه فيها، وقد تهافت عليه بعض الأطباء تهافتاً ليس فيه تدقيق علمي صحيح ، والمرجح أنه توفي كثير من الناس من استعماله بدون حذر ودراية منهم أحد رؤساء الحكومات العربية وصحافي كبير بمصر

والأميركان يستعملونه استعمالاً وافياً بالجيش وعند العامة ليقُوهم في الشتاء شر الالتهابات والنزلات الشعبية الرئوية الشديدة الوطأة . وحقيقة أن فعله كواقٍ من هذه النزلات لربما يفوق فعله كشافٍ وأنا أعتمد كثيراً عليه كواقٍ كي أخفف من شدّة الأنفلونزا اذا تراءى لي انها تبدو بظواهر وأعراض يُخشى منها اذا تُركت وشأنها مع العلاج السابق .

كذلك عند ما اكتشف البنسلين أحدث اكتشافه ضجة عظيمة ودوياً كبيراً فتهافت عليه الناس تهافتاً وقعنا بها لبعض الأخطاء التي صادفتنا عند ظهور السلفاميد . وقد أهملوا كثيراً بدون وجه حق السلفاميد واعتمدوا على البنسلين الذي هو أقل ضرراً منه اعتماداً صحيحاً في حالات عديدة نفعه فيها مؤكد، وفي حالات عمله فيها ضعيف أو مفقود . وقد أهملوا السلفاميد اهمالاً لا يستحقه . وقد قرر مؤتمر الأطباء الدولي الذي اجتمع بلندن منذ ثلاث سنوات على ان حالات النيمونيا « النزلات الشعبية الرئوية » يلزم لمقاومتها اشراك العلاجين السلفاميد والبنسلين معاً . وأنا متتبع هذه الطريقة لأبدأ بالبنسلين قبل أن أمهده بالسلفاميد واختار منه أصح المستحضرات السلفاديازية .

ولم يكتفِ العلماء بهذا العلاج بل تابعوا ابحاثهم وتوصلوا أخيراً وبطريق الصدفة الى فائدة كما حدث باكتشاف البنسلين، والبنسلين مادّة بيولوتيكية أي مقاومة للعفن قليلة الضرر لا تساعد على الحد من افرازات ميكروب التيفوئيد ، والباراتيفوئيد ، والميكروبات التي مصدرها الأمعاء التي تتسرب منها الى الكلى فتعشش فيها ، وكثير من هذه المكروبات تصادم فعل البنسلين ، ويسموها الميكروبات المقاومة .

الدكتور يوسف كحيل

وفي العدد القادم الكلام على الستربتوميسين

ذكرى ويأس..!

ذوى الريحانُ والوردُ! فلا كأس ولا خمرُ!
وجفَّ الروضُ محزوناً فلا لحنٌ ولا عِطرُ!
أنا في برجيَ العاجي وحيدٌ، ثائرٌ، حرْ
أناديكِ وأنتِ الفتنة الحمراء والسحرُ!

⁂

أناديك بشوقٍ ثائر النفثات مجنونِ!
تعالي ننعم اللقيا! أبثك همس محزون
علينا الطهر رفّاف ومنك الحسن يغريني
فأجمع في فؤادي بين صوفيٍّ ومفتونِ!!

⁂

أناديكِ وقد صفّفتُ ريحاني وصهبائي
أناديكِ فلا أسمع إلا رجعَ أصدائي!
وألمس طيفَ ذكراكِ بأوهام وإيحاء!!
وأنت النبعة العذراء من نورٍ ولألاء

⁂

تلفتُّ من حولي! فما أجدكِ تلوحي!
أنا العائد في يأسٍ بآلام وتبريح!
أنا العائد أدراجي إلى هيكل تسبيحي
بواهٍ في الضلوع محطّم الآمال مجروح!

⁂

مواكب من رؤى حيرى! وآمالٍ وأحلامِ
تشيع الحزن في نفسي وتنشر طيَّ آلامي!
هي الذكرى المُمضّة!! علّلت قلبي بأوهام
فيا لوعة قيثاري!! ويا ضيعة أنغامي!

⁂

أرقتُ الخمر من كأسي! وألويتُ بأقداحي
وذاب نواغم اللحن على منقار صدّاحي
وأخمدتُ بأنّات الأسى أنفاسَ مصباحي!
وآثرتُ التجاوبَ بين أطيافي وأشباحي!

⁂

أنا الضاحك من حبّي أنا الباكي على أملي!
أنا الساخرُ من دنيايَ من يأسٍ ومن مَلَلِ
دعِ الكأس! فما تجدي بنشوان الأسى ثَمِلِ
هي الراحةُ في اليأس! فما شعري؟! وما غزَلي؟!

كربلاء العراق رابح لطفي جمعة

للثقافة العامة

مكتبة برعاية كلية البنات في غمرة

كلية البنات الأميركية في غمرة هي بالاسم أميركية ولكنها بالحقيقة مصرية عربية وطنية يتثقف فيها بنات من كل جنس وملة ونحلة، وما كنيت بالأميركية إلاّ لأن معظم نفقات انشائها وتقدمها من أموال أميركية.

واذا اطلعت على تقاريرها السنوية منذ انشائها الى اليوم أي منذ ٥٠ سنة وبحثت عن مصير خرّيجاتها رأيت ان معظم عقائل وزرائنا وكبار حكامنا ووجهائنا من هؤلاء الخريجات، والآن الجانب الكبير من الطالبات هنّ بنات أكابر قومنا

المكتبة في شهر فبراير سنة ١٩٥٠

وجميع من تخرّجن في هذه الكلية يفتخرنَ بشهادتهنّ وينتمينَ إليها، وبأنها كليتهنّ ويعطفنَ عليها عطف الفتاة الراشدة على أمها الحنون. ولذلك خطر لبعضهنّ أن يكون للكلية مكتبة عمومية (غير مكتبتها الخاصة) تختلف إليها الخريجات والطالبات وغيرهنّ من سيدات القاهرة وآنساتها من كل ملة ونحلة، ولا طائفية فيها. فتكوّن هذه المكتبة من عناصر الخدمة الثقافية العامة في البلد، ونعم الخاطر.

وفي سنة ١٩٤٤ انعقد اجتماع في رابطة الخريجات، وبُسط فيه مشروع بناية المكتبة في أرض تتبرع بها الكلية، فقوبل في حماسة عظيمة. وكان المطلوب في ذلك الاجتماع الاكتتاب في ١٠ آلاف جنيه على الأقل. وفي سنة ١٩٤٧ كان مجموع الاكتتاب ١٠٦٠٠ جنيه. ولكن البحث والدرس أظهرا أن هذا المبلغ لايكفي لمشروع ضخم كهذا، فلا بدّ من اكتتاب آخر وجمع قيمة أخرى كهذه لاتمام ٣ ادوار من البناء وتأثيث المكتبة الخ.

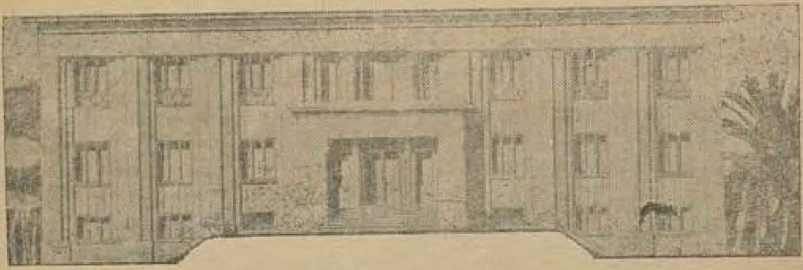

المكتبة كما يجب أن تكون قبل ديسمبر ١٩٥٠

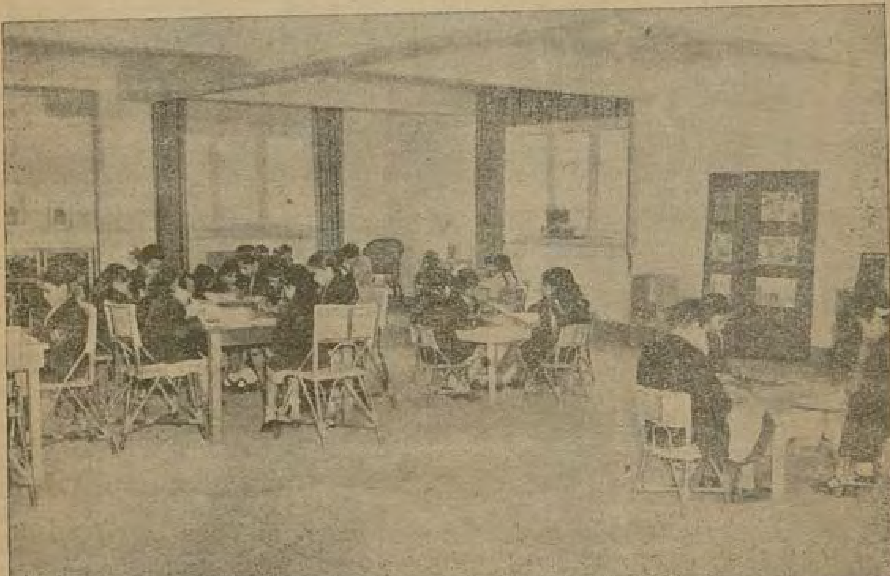

مكتبة الاطفال — Children's Library

ويقال ان الدكتور مارتن رئيسة الكلية اقترحت أن تذهب الى أميركا وتجمع المبلغ المطلوب من هناك فاعترضت أكثر الخريجات على هـذا الاقتراح وشكرنَ للرئيسة تبرعها

الكريم . وقلنَ : لا نقبل على أنفسنا أن نستعين بمساعدة أجنبية في مشروع ثقافي وطني بحت ، ما عدمنا النخوة المصرية . فكما جمعنا العشرة آلاف نجمع العشرة الأخرى . اللهمَّ اذا كنا نظهر شيئاً محسوساً من المشروع . فأنفقت العشرة آلاف في الأساس و بناء دورين من المكتبة كما تراهما في الرسمين . ودعي جمهور من ذوي الأريحية الى احتفال في آخر شهر ابريل لمشاهدة ما تمَّ من المشروع ورؤية استعماله بالفعل . بقي انجاز الدور الثالث وتأثيث جميع غرف المكتبة وأبهائها وقنية الكتب لها . وهو ما يُسعى له منذ اليوم على أمل أن يتم المشروع كله في ديسمبر من هذا العام .

غرفة قراءة الطالبات

وقد يُعلم أن مركز هذه الحركة المباركة هو نشاط الآنسة الدكتور مارتن رئيسة الكلية . فهي كالحركة الدائمة . وقد قضت شبابها وكهولتها في الخدمة العامة . ومنذ مدة ذهبت الى أميركا في اجازة سنة بعد خدمة متواصلة عدة سنين ولم تضع الوقت سدًى ، بل كانت تقضي السنة في دراسة الفلسفة في جامعة حتى حصلت على لقب دكتور في الفلسفة . ونحن نؤكد أنه لو سمح للدكتور مارتن أن تجمع في أميركا مالاً للمكتبة لجمعت أضعاف المبلغ المطلوب ولكن الكرامة الوطنية قبل كل شيء وهي الكفيلة باذن الله باتمام هذا العمل المجيد . فهلمَّ يا خريجات الكلية وأهلهنَّ وذوي قرباهنَّ وأصحابهنَّ . فما المبلغ المطلوب بكثير على أريحيتهم

انين فتاة

فدى له الروح إن البعد يبكيني   والقرب منه لذكرى الهجر ينسيني
فهل يعود ويحييني بزَوْرته   أم في دجى اليأس والآلام يلقيني
عانيت في حبه الاسقام صابرة   أقضي الليالي وطول الهجر يضنيني
أذبتُ قلبي له خمراً ليشربها   وبتُّ أسقيه كأساً وهو يسقيني
تمحو سقامي وآلامي ابتسامته   إن شاء يقتلني أو شاء يحييني
يرنو اليَّ وفي قلبي لهيب جوًى   ويرشف الشهد من خدي فيشفيني
ظمأى اليه وظمآن اليَّ وما   غير المدامع ترويه وترويني
يمدُّ حولي ذراعيه يطوّقني   يضمني ويناجيني ويشجيني
يكوي فؤادي بأنفاسٍ مؤججةٍ   ياويح قلبيَ مما بات يكويني

جانيت كيلرمان

مكتشفات علمية

حشوات الاسنان المتغايرة المعادن — حذار منها

يقول علماء أمريكا إن المرء الذي يحشو له طبيبه أسنانه النخرة ، بحشوات معدنية مختلفة الأنواع ، أو يصنع له مشابك لأسنانه من معادن متنوعة ، يغدو كشخص يسير في طريقه مطبقاً فاهه على طاقة كهربية تبلغ نصف فولط ، أي ثلث الطاقة التي يقتضيها إشعال بطارية من البطاريات اليدوية التي تنير طريق حاملها . وذلك وفق ما جاء في رسالة علمية قدمت الى الجمعية السكيماوية الأمريكية .

وقد اشتهر منذ ٧٠ سنة أن الحشوات المعدنية التي تحشى بها الأسنان النخرة قد تولد تيارات كهربية . ولكن هذه الحقيقة لم يكترث لها العلماء الا في الأعوام العشرين الأخيرة طبقاً لما جاء في النشرة السالفة الذكر التي نشرها الدكتوران ويليم شرايفر ولويس إ . دياموند الطبيبان في جامعة أوكلاهوما .

وتدل التقارير الطبية التي قدمت في هذا الصدد ، دلالة قاطعة أن حالات مرضية شديدة تولدت في الفم من الحشوات المعدنية المختلفة الأنواع التي تحشى بها الأسنان .

ووصف ذانك الطبيبان ١٣٧ تجربة جرباها في مرضاها ، فقالا « إنه متى حصلت ملامسة مباشرة بين حشوتين متغايرتي النوع ، تولدت منها تيارات كهربية كبيرة نسبياً تحدث انزعاجاً أو رعدات كهربية بغيضة وان تكن غير خطرة . ويحدث أحياناً ان يتعرض الانسان لرعدة كهربية إذا ما لامست الاسنان ملعقة أو شوكة معدنية فى وقت واحد ، حشوتين معدنيتين مختلفتين من حشو اسنانه . ومما يجدر ذكره أن حشوات أسنان بعض الناس تولد طاقات كهربية ، تزيد على نصف فولط . ومع ذلك فهم لايشعرون وقتئذ بانزعاج ، ولا تحيق بهم نتائج جلية ضارة .

طبخ الطعام بحرارة الشمس

اخترعت حديثاً أوانٍ جديدة « مسخّنات » تسخّن بالحرارة التي تتولد من أشعة الشمس لأجل طبخ الطعام . ومخترعها فرنسي . وتعلق هذه المسخنة في وسط مرآة عاكسة للحرارة على شكل طبق كبير يلتقط حرارة الشمس ثم يجمعها في نقطة مركزية ، إذ تتبع المرآة العاكسة ، حركة الشمس ، وذلك بمفتاح أوتوماتيكي تحركه أيضاً حرارة الشمس نفسها

غواصات ذرية (١)

جاء في تلغراف لشركة روتر من لندن في ١٩٥٠/٢/٨ : ستشرع بريطانيا في صنع أكبر آلات ذرية لتركب في سفن المستقبل ، إذا وافقت الحكومة على مشروع سيعرض عليها في غضون الشهرين القادمين . وستكون هذه الآلات صغيرة الحجم ليتسنى وضعها في حجرة آلات السفينة . ثم جاء من واشنطون في البرقيات العامة التي نشرتها جرائدنا المحلية في ١٢ فبراير سنة ١٩٥٠ ما يأتي : —

إن التنافس بين الولايات المتحدة وروسيا في ميدان إنشاء أول غواصة تستخدم الطاقة الذرية في ادارة محركاتها ، قد يعرقل جهود الولايات المتحدة في صنع القنبلة الهيدروجينية . والمعتقد أن غواصة من هذا النوع قد تحدث انقلاباً في فنون الحرب البحرية ، لما تتميز به من المزايا الرائعة ، إذ تستطيع قطع مسافات أطول من المعتادة ، وتغوص الى أعماق أعمق من المألوف ، وتظل تحت الماء برهة أطول مما يتيسر للغواصات العادية » .

وفي هذا الصدد يقول العلماء المتخصصون في هذا الفن « لقد أزف اليوم الذي سيتاح فيه تسيير السفن بمقدار صغير من اليورانيوم ، إذ شرعت اللجنة الأمريكية للطاقة الذرية ، تهتم باستخدام هذه الطاقة استخداماً مباشراً في تسيير المراكب . ويقوم بتصميم المحرك الذري الذي سوف يستخدم لهذا الغرض ، المعمل الكيماوي الوطني في الأرجون بشيكاغو ، كما يباشر اختراعه ، وتقوم شركة وستنجهوس أيضاً في بتسبرج بتقديم تفصيلاته الهندسية وتعضد وزارة البحرية الأمريكية هذه التجربة . وما من شك أن تسيير السفن بهذه الطاقة كان منذ حقبة مديدة ، وما زال ، موضع بحث الخبراء وتفكيرهم . ولا غرو فالسفن التي تزوّد بالطاقة المشار اليها ، يصبح في وسعها السفر أشهراً بغير اضطرارها الى تجديد وقودها . وإنما العقبة الوحيدة التي تعترض هذا المشروع هي وجوب تزويد السفينة التي

---

(١) الكاتب — راجع مقالنا الذي نشر في مقتطف مايو ١٩٤٦ بعنوان : إمكانية تسيير السيارات والطائرات بالطاقة الذرية

محركها هذه الطاقة ، بوقاء كثيف من البرقاء المسلحة ، التي يبلغ ثقلها عدة أطنان لكي تمنع أضرار التشعع الذي يتولد من اليورانيوم . ويعتقد الخبراء أن ذلك الثقل الفادح هو الحائل الذي يحول دون استخدام الطاقة الذرية في تسيير السيارات والطائرات ». وجاء في برقية أخرى من بتسبرج في ٧ / ٣ / ١٩٥٠ ما يأتي : — أعلنت مصانع وستنجهوس أمس انها تقوم ببناء مصنع خاص لصنع غواصات تسير بالطاقة الذرية لحساب الأسطول .

مسحوق الـ د. د. ت. يصون الصوف من العث وغيره من الحشرات

لوقاية الصوف من ضرر العث وغيره من الحشرات ، يستعمل محلول يحتوي على ٥ ٪ من بودرة الـ د. د. ت . وقد ثبت كون هذه الوسيلة أشد تأثيراً من أية مادة من المواد الحالية المستعملة لهذا الغرض . وهذا طبق النتائج الحميدة التي أسفر عنها البحث الذي أقرّت مشروعه رياسة الجيش الأمريكي ، كما أذاعها البكباشي فريدريك . و . هويتمور العالم المتخصص في علم الحشرات وطبائعها ، التابع للجيش نفسه . وكان هذا المكتشف قبل التحاقه بالجيش تابعاً لوزارة الزراعة الأمريكية . وسيفضي اكتشافه هذا بلا شك الى توفير مبالغ ضخمة لا حصر لها ، كانت تخسرها الحكومة الأمريكية وغيرها من الحكومات ، في صون سلعها الصوفية عند خزنها . كما كانت تضيع على الأفراد المدنيين ، وفقاً لما قاله البكباشي هويتمور .

حبال كهربية تدفىء البطانيات

اخترعت في أمريكا حبال مغطاة بطبقة من العجائن الكيماوية ، في طرف كل حبل منها مفتاح لتنظيم الحرارة . فاذا ما رغب المرء في تدفئة البطاطين العادية التي يتدثر بها أو يفرشها تحته فوق سريره ، لكي يجعلها بطانيات كهربية أوتوماتيكية ، بسط هاتيك الحبال ، حيثما اتفق ، بين البطانيتين العاديتين اللتين يستعملهما ، فيولد الحبل المشار اليه ، حرارة تكفي لجعل المستدفىء يدفأ حتى ولو هبطت درجة الحرارة ليلاً الى ما تحت الصفر . ولا تستهلك هذه الطريقة أكثر من ٧٥ وط . وفي وسع طالب الدفء أيضاً جعل التدفئة التي يحدثها الحبل الكهربي ، مقصورة على قدميه دون سائر جسده ، أو جعله يدفىء حشية واحدة (مرتبة) أو حشيتين . وطول كل حبل منها عشر ياردات وله مشابك تشبكه بالبطانية المراد تدفئتها .

عوض جندي

أدوار العمر

الإنسان أبطأ نموًّا من سائر الاناسي البدائيين، وأشباه الانسان في جميع أدوار حياته منذ وجوده في الرحم الى نهاية العمر. لأن هؤلاء الأحياء جميعاً تبتدىء تطورات حياتهم منذ كونهم أجنّة الى ما بعد الولادة، طوال مدة الحياة.

تقسم حياة الانسان الى أربعة أدوار. الدور الأول: في الرحم ومدته ٢٦٦ يوماً، أي (٩ أشهر و٥ أيام قمرية. الدور الثاني: هو دور الطفولة من الولادة الى ظهور الاسنان الطواحن الأول) أي الفوج الأول من الأسنان ومدته نحو ست سنين. الثالث: دور الصبوة نحو ١٤ سنة يمتد من السنة السادسة الى العشرين. وفي اثنائه يدخل دور التسنين الدائم. الرابع: دور البلوغ يشمل الخمسين سنة التي يكون الانسان فيها في عز عمره، وأروع أيام حياته. الثلاثون سنة الأولى من مدة البلوغ تشمل ثلاثين سني الخصب عند المرأة. والعشرون سنة الأخرى هي دور التقهقر.

هذا في الانسان، وأما في الشمبانزي وهو أقرب أشباه الانسان الى الانسان. فمدة الحمل ٢٣٠ يوماً (٨،٤ أشهر قمرية) مدة الطفولة ثلاث سنين. مدة الصبوة ٨ سنين. مدة البلوغ نحو ٣٠ سنة. العشرون الأول منها هي سنوّ الخصب عند الاناث.

عند القرد الهندي المسمى Rhesus monkey (وهو مقدّس عند الهنود) مدة الحمل ١٦٦ يوماً (ست أشهر قمرية). شهران أقل مماهي في الشمبانزي. مدة الطفولة سنة ونصف، مدّة الصبوة ست سنين ونصف. مدة البلوغ نحو ٢٠ سنة. نحو عشر سنين أقل من أشباه الانسان. بتطوّر أشباه الانسان البدائيين الضخام الجثة المنتصبي القامة ابتدأت الأعمار وأدوار الحياة تطول. هذا التطور بلغ منتهاه بتطوّر الانسان

الانسان متفوّق ليس بطول حياته فقط، بل بطول أمد النشاط في نموّ دماغه. الغريب

انه في الجيبون والقرد الهندي يبتـدىء نشاط النمو في الدماغ منذ الولادة . يبلغ حجم الدماغ فيهما نحو ٧٠ بالمئة من حجم البالغ . بعد الولادة ينمو دماغهما بمعدل يطابق نمو الجسم . وأما الإنسان فيولد ودماغه ٢٢ بالمئة من حجم جسمه . وبعد ذلك يسرع معدل الزيادة في السنتين الأوليين من حياته . وإنما يبلغ السبعين بالمئة في السنة الثالثة . إذاً معدَّل النموّ أو الزيادة يجاري زيادة الجسم .

في الشمبانزي والغورلا دور قصير لنمو الدماغ بعد الولادة . ونسبة السبعين في المئة تحدث في السـنة الأولى من عمرها . دور نشاط الدماغ يزداد في القرد الهندي ويمتد نحو ستة أشهر . وفي الشمبانزي ١١ شهراً وفي الانسان يمتد الى ٣٦ شهراً . وهنا نرى في سياق التطوُّر البشري ان الوقت اللازم لتجمع ألوف الخليات العصبية واسلاكها التي تدخل في بنية دماغ الانسان ونظامه ، تبتدىء منذ كونه جنيناً . وجميع الخواص التي تظهر في حياة الجنين تنتقل الى حياة البالغ . ففي دور الحمل ودور الصبوة عند كلا الانسان والشمبانزي وأشـباه الانسان يكون الدماغ كبيراً والوجه صغيراً . ويلاحظ انه في هـذين الدورين لا يستفيد الطفل من عمل دماغه ولا من وظيفة فكيه . ففي مدة الحمل الأم تموّن الجنين بالغذاء والدفء والحضانة . فالدماغ والفكان لا تعمل عملاً . ولا وظيفة لها لكي تستعملها . وفي مدَّة الطفولة والصبوة يقوم الوالدان بحاجات المولود . فمدة الحمل والطفولة حتى الصبوة تعتبر مدَّة الاستعداد للنموّ وإعداد البنية للعمل واستقلال الوليد .

في القرد الهندي مدَّة الاستعداد والاعداد قصيرة لا تتجاوز الثلاث سنين و ٨ أشهر . وفي الانسان مضاعف هـذه المدَّة ٦ سنين و ٩ أشهر ، يعني بعد هذه المدّة يستقل الغلام بالأكل واللبس والنوم الخ من غير معونة والديه . ولا يعتبر الغلام مهيأً لتحصيل الرزق قبل أن يبلغ سنّ البلوغ

يقول السير ارثر كيث ان هذه الاستعدادات والاعدادات مهيأة في الانسان منذ كان جنيناً . فبما هو جنين كان يُعَدُّ في بطن أمه لأن يكون غلاماً ثمَّ فتىً . لذلك تجب العناية في حياة الأم منذ الحمل . فما أعظم مسؤولية مصلحة رعاية الطفل . والشكر لحكومتنا السنية التي أعطت هذه المصلحة حقها من العناية .

الموسوعة الاجتماعية العربية

الحمد لله . ولله الحمد

هي الأمنية التي طالما نشدناها وتحسرنا لعدم وجودها عندنا ، وطالما بكيناها .

الحمد لله حصلت اليوم وألف شكر والحمد لله . هي نعمة نزلت على العالم العربي من عند الله صدر العدد الأول من موسوعة عربية باسم «الموسوعة الاجتماعية» . ونحن لم نألف كلمة موسوعة فنضطر بكل أسف أن نفسرها بكلمة انسيكلوبيذيا، لاننا نعرف هذه أكثر من تلك ، ولولا أن «موسوعة» لفظة واحدة لكنا نفضل عليها «دائرة معارف» ولكن كلمة موسوعة أقرب منالاً وأسهل مراساً في التصريف .

أجل صدر العدد الأول من « الموسوعة الأجتماعية » التي انبرى لها أربعة من كبار علمائنا الذين لم يقتصروا على الثقافة الجامعية العالية ، بل ألحقوا بها الثقافة الذاتية خارج الجامعة ، فصاروا أهلاً لأن يتصدوا لهذا العمل الجبار الذي لايقوم به الا عدد عديد من فطاحل العلماء في الغرب .

وهؤلاء الأربعة الأعلام هم الاساتذة علي زين العابدين حسني المحرر ، وابراهيم زكي خورشيد (الذي يشرف على « تاريخ العالم » الذي يصدر تباعاً منذ عام ونصف العام) وهو يشرف على تحرير الموسوعة ، وأحمد الشنتناوي الذي يشرف على ادارتها ، ومحمود محمد شاكر مدير تحريرها

وانها لجرأة عظيمة أن يتصدى لهذا العمل الخطير هؤلاء الأربعة الأفذاذ فقط . وكان في نيتهم أن تكون موسوعة عامة شاملة كل نوع من المعارف علميًّا واجتماعيًّا، ولكنهم رأوا أن المهمة عظيمة جدًّا قد تنوء بها نخوتهم . فاقتصروا على المعارف الاجتماعيـة ، وتركوا المعارف العلمية البحتة ، الى ما بعد الانتهاء من هذه ، فان توفقوا في هذه فليس ما يمنعهم أن يعودوا الى تلك .

وقد رأوا نموذجاً لها باللغة الانكليزية فاقتبسوه ، وكانت مهمتهم الأولى أشق المهمات في هذا العمل الجليل الخطير الشأن، فقضوا عاماً وبعض العام في ترتيب المواد في مواضعها الطبيعية بحسب الأبجدية العربية . ولا ريب أن القارىء يشعر معي بمشقـة هذا العمل . فقد تكون مادة اتحاد في الموسوعة الانكليزية في آخر مجلد . ولـكن في موسوعتنا تأتي في المجلد الأول . وقس عليه . قاسوا كثيراً حتى رتبوا ستة آلاف مادة (إن صدقت ذاكرتي) في مواضعها وشرعوا يترجمونها عن الأصل طبق الأصل .

ولا يخفى أن موسوعة كهذه ، وأية موسوعة غيرها ، يكتبها مئات من فطاحل العلماء بل ألوف . والانسكلوبيذيا البريطانية (الطبعة الأخيرة) كتبها نحو ٤ آلاف عالم أميركي وأوروبي ، فجاءت المثل الأعلى . وموسوعتنا هذه ستكون المثل الأعلى في لغتنا . وقد وقعوا في نهاية كل مادة اسم محررها ، وألحقوها بعنوانات المواد التي تمت اليها بصلة ، حتى إذا رام القارىء أن يستوفي الموضوع من جميع نواحيه أو يتوسع فيه اطلع على هذه المواد الأخرى في مواضعها من الموسوعة نفسها .

ثم ألحقوا كل مادّة بالمصادر الأجنبية التي استند المحرر إليها أو التي يفيد القارىء الاطلاع عليها ، من انكليزية ، وفرنساوية ، والمانية ، وإيطالية الخ .

« الموسوعة الاجتماعية » تتناول الآداب والأخلاق على الاطلاق والتاريخ والاقتصاديات وجميع أنواع السياسات . وبالاختصار كل ما يلوح في البال مما ليس علميّاً بحتاً . فهي من هذا القبيل تشفي غليل الخواص والعوام ، وكل قارىء يجد فيها ما يريد أن يعلمه من شؤون الحياة على الاطلاق .

ولذلك نعتقد ان نفقات هذا المشروع المالية لا تقع على كواهل هؤلاء الأربعة الأعلام وحدهم ، فلا بدّ أن تصادف هذه الموسوعة اقبالاً عظيماً من المئة مليون عربي في الشرق والغرب . أفلا تجد أربعين ألف قارىء يحتضنونها فيقضون لبانتها . ولنا الأمل الكبير أن الحكومة تعضدها تعضيداً قويّاً بحيث لا تدعها تكبو فهي أولى بعطف الحكومة من كثير مما تنفقه بسخاء على طبعه ككتاب صبح الأعشى وغيره .

هي تصدر كل شهر في نحو مئة صفحة كبيرة على عمودين مطبوعة طبعاً جميلاً على ورق ثمين يليق بموسوعة . وثمن كل عدد ٢٥ قرشاً .

هذا مشروع عربي جليل هو محكّ لما بلغت إليه الحضارة العربية الحديثة والثقافة العربية من الرقي . فعلى قدر رواج هذه الموسوعة يقاس رقي الحضارات العربية .

ولا ريب أن اللجنة اتخذت كل الوسائل اللازمة للنشر والدعاية . بقي على تجار المطبوعات من كتب ومجلّات وجرائد أن يساهموا في ترويج هذا العمل المبرور . وبالطبع لهم قسط وافر من نتاجه .

ان هذا العمل على قول بعض القائمين به يستغرق بين خمس سنين أو ست .

وهم والحمد لله في شرخ العمر . فالخمس سنين تنتهي وهمتهم لا تنتهي . فيشرعون بعد اتمام هذا المشروع الجليل أن يصدروا موسوعة علمية ، تتم بها موسوعتنا هذه . وعلى الله الاتكال .

مصيبة في ثروة

دخل على مأمور قسم ك . في القاهرة فتىً ناحل القوام مكفهرّ الوجه في نحو الثامنة عشرة من عمره وانقضَّ على يديه يقبلهما وهو يبكي ويقول : بعرضك يا سعادة المأمور احمني . حياتي في خطر .

ومن حسن حظه كان مأمور ذلك القسم ذا ثقافة عالية، نبيل النفس، رضي الخلق، طيب القلب . فأقعده على كرسي الى جنبه وقال : هدئ روعك يا بنيّ : لا تخف ، ما هو اسمك

— اسمي بديع نصري

— ففكر المأمور هنيهة وقال : هدئ روعك . ما هي قصتك ؟

فقال الفتى وهو لا يزال « يقشعر » من الخوف : الى الآن لم أفهم ما هي قصتي . قضيت أكثر من أسبوع في حجرة تحت الأرض لا شباك لها ولا نافذة سوى باب موصد دائماً ، إلاّ حين يقدَّم لي طعام تعافهُ النفس مرة في اليوم . وكنت دائماً تحت التهديد والوعيد وأنا لا أدري سبباً سوى أن حياتي مرهونة لقضاء مجهول .

فقال المأمور : حقاً ان قصتك غير مفهومة وربما كنت أفهمها أكثر منك . فأرجو أن تبسط لي كيف ادخلت الى ذلك السجن . أين كنت قبله . ثمَّ كيف خرجت منه .

— كنت يا سيدي أشتغل كاتباً بسيطاً في مكتب شركة ك ... وخرجت مساءً كعادتي مع سائر المستخدمين، وبينهم فتاة أرمنية تدعى أرميناك تقطن في ضاحية ش ... التي أقطن فيها . وبطبيعة الحال كنا نترافق أكثر الأيام . وفي المساء الأخير ماشيتها الى مقربة من منزلها . وكان الظلام قد سدل سجوفه . ولما ودعتها وعدت أدراجي استوقفني شخصان واقفان عند سيارة . وحملني أحدهما كما يحمل عصفوراً ووضعني في السيارة، والآخر كمَّ فمي بكمامة . ولم أستطع أن أستغيث لأني كنت مخمد الأنفاس بين جبارين . وما لبثت أن غبت عن الرشد . وما صحوت إلاَّ وأنا في ذلك السجن المظلم هلِع الفؤاد . ناديت فلا حياة لمن أنادي . استغثت فلا مغيث . بكيت فلا ترق لي الجدران القذرة . فهمت أني مدفون حيّاً . ولكن لماذا ؟ لم أسيء لأحدٍ قط ؟

بعد حينٍ طويل انفتح الباب : ودخل عليّ جبار بمصباح كهربائي ضئيل النور، وبيده

شيء من الطعام الجاف، وإناء من التنك مملوء ماء . وقال بصوت فظ جداً . خذ كل واشرب

فتراميت على قدميه وجعلت أتوسّل إليه أن يخبرني ما هو الذنب الذي أذنبته حتى حُبست هكذا . فانتهرني قائلاً : اخرس . لا تتكلم . كل واشرب والاّ أتركك بلا طعام .

فأكلت قليلاً اذ لم يبق لي الخوفُ شهوة للطعام .

وقد تكرر هذا الأمر نحو خمس مرات في خمسة أيام إن صدق تخميني وكنت كل مرة أتوسّل لذلك الطاغية أن يرحمني ويخبرني لماذا أنا معتقل . وما هو ذنبي . فلا أسمع إلاّ تهديداً ووعيداً بحيث لم يبق عندي شك أن المطلوب هو سل روحي من بدني كمداً . ولكن لماذا : لم أدر

فقال المأمور : وأخيراً كيف خرجت ؟

— في المرّة السادسة طلب مني ذلك الجبار أن أوقع على صك (حوالة بنك) بخمسين ألف جنيه . ففي إبان يأسي وبؤسي ضحكت وقلت له : إنت غلطان يا سيدي : لست أنا الذي تقصد .

فقال اخرس . بل إياك أقصد . اذا كنت لا توقع على الصك لحياتك لا تبقى لك .

قلت : أوقع يا سيدي. ولكن ليس لي في بنك خمسون مليماً . ولا أملك شروى نقير ، وماهيتي ستة جنيهات في الشهر ، فمن يدفع لك الصك بخمسين ألف جنيه .

فنفر مني قائلا : — إذاً ، مت كمداً هنا

وخرج موصداً الباب دوني بالرغم من استغاثتي به أن يتمهل الى أن نتفاهم .

بعد حين عاد وقال : ألا توقع على الصك

قلت — أوقع بكل امتنان .

قال : والدفع .

قلت — حبذا أن يكون عندي المبلغ فأشتري به حياتي عن طيب خاطر

قال : هب أن المبلغ تيسر لك بعد حين أفلا تدفع الصك .

— أدفعه بكل امتنان . ولكن من أين يتيسر لي مبلغ جسيم كهذا ، وأنا لو انقطعت عن الأكل والشرب مدة ٧٠٠ سنة وجمعت ماهيتي في هذه المدة لما تمّ لك المبلغ

فانتهرني وقال : — يظهر أنك لا تنوي الدفع فالأفضل أن تموت كمداً هنا

وولى ظهره فاستمهلته قائلاً : أنوي من كل قلبي أن أدفع يا سيدي حالما يتيسر المبلغ .

ففكر برهة ثم قال : — يحتمل أني لا أحصل على قيمة الصك، فالأفضل أن تتعهد كتابة أن تعينني سكرتيرك الخاص بماهية مئة جنيه في الشهر .

فقلت في نفسي كما قال الشاعر .

الصدق أن ألقاك تحت العطب لا خير فيه فاعتصم بالكذب

فلأجارِ هذا المجنون على فكره . وقلت له : أعدك أن أفعل حالما أصير رئيس البنك

— صرت أو لم تصر يجب أن تتعهد هذا العهد على الورق .

سلمني ورقاً وقلماً وأملى عليّ نص العهد . فكتبته وأمضيته .

ثم كمّ فمي وعصب عينيّ وأخرجني ووضعني في سيارة درجت بي نحو ربع ساعة وأنا لا أدري أين سيدهورني ذلك الشرير ، الى أن هون الله ووقف بالسيارة . وحلّ العصابة عن عيني — وقال : — هذه طريقك سر فيها . وفي أحد الأيام سأريك ذلك العهد لكي تعلم أني أنا سكرتيرك . فان بدت منك أية بادرة تدل على سوء قصد منك فثق أن حياتك بخطر لا يقيك أحد منه .

وأطلق لسيارته العنان ، فمشيت قليلاً حتى أدركت أني أصبحت في طريقي الى منزلي . دخلت البيت وأنا لا أصدق اني فيه . علمت من حركة الشوارع أن الوقت في أول السهرة

حاولت أن أطمئن في سريري فازددت اضطراباً وقلقاً لأني كنت أتخيل ذلك الجبار ورفيقه يترصدانني ، وحياتي تحت رحمتهما . لذلك جئت استغيث بك يا مولاي راجياً أن تسمح لي بالمبيت هنا في القسم كل ليلة لقاء خدمة أقوم بها بعد الانتهاء من عملي في الشركة .

فضحك المأمور وقال : لا تخف . ولا تبت الآ في بيتك مطمئنًّا . أتأسف أن غريميك نجوا من يدي باطلاق سراحك ، ولكن ...

عند ذلك دخل الملاحظ وقال : ياحضرة البك « كبسنا » الفلاّ كبساً محكماً وفتشناها تفتيشاً دقيقاً فما عثرنا على الفتى ولا على أثر لسجين هناك .

فقال المأمور : هاهو الفتى . والظاهر أن الغرماء علموا « بالكبسة » فأطلقوا سراحه . من كان الخائن من رجالك :

فقال الملاحظ يستحيل يا حضرة البك أن يكون فيهم خائن لأنه لم يعرف أحد منهم بهذه الحملة السرية غيري . ما عرف رجالي أين هم مسيرون الى أن أحاطوا بالفلاّ

فقال المأمور : استدعِ المبلّغ لأتحقق منه أموراً .

ثم التفت المأمور الى الفتى وقال : هل تعرف فتىً يدعى جاك منصور .

— هو زميلي في مكتب الشركة

— هو الذي أبلغنا أنك مفقود وهو الذي وجه أنظارنا الى ذلك المنزل المنعزل على

ظن أن تكون معتقلاً فيه . فيجب أن نتحقق أموراً منه، فانتظر هنا الى أن يأتي .

***

بعد برهة دخل جاك المنتظر . ولما وقعت العين على العين ، رحب الرفيقان كلٌّ منهما بالآخر ، وهنأ الثاني الأول على السلامة .

ثم قال المأمور لجاك : فهمنا منك أن صديقك بديع نصري معتقل في الفلاّ التي دللتنا عليها، وزعمت أن السبب هو علاقته مع الفتاة أرميناك ، لأن شخصاً آخر يحبها ، فغار من بديع ....

فقاطع جاك المأمور قائلاً : كذا ظننت ولكني لم أؤكد هذا الظن . فقد أكون مخطئاً كل الخطأ ، أليس هناك وجدتموه .

فقال المأمور : — لا . ولا نؤكد انه كان هناك . لأن معتقليه أخرجوه من تلقاء أنفسهم قبل أن تكبس الفلاّ . فهل ذكرت لأحد شيئاً من هذا القبيل فبلغهم خبر الكبس

— كلاّ يا سيدي بقيت كاتماً السر كما أمرتني حتى الساعة .

— حسناً . وما هي الأدلة التي حملتك على الظن بأن بديعاً كان معتقلاً هناك لذلك السبب

— لأني كنت أعلم أن بديعاً يماشي الفتاة أرميناك أكثر الامساء الى مقربة من منزلها وكنت أرى أرميناك أحياناً تحيي شاباً أرمنيًّا ظننته قريبها . واستنتجت أنها حبيبته . ولما فقد بديع ، ولم نعد نعرف أين هو ، خطر لي أن ذلك الشاب سبب اختفائه . فترصدته مرتين الى أن رأيته يدخل الى تلك الفلاّ ، ورأيت للفلاّ بدروناً عميقاً . فكنت أتسمع في السهرة فيخيل لي أحياناً أني أسمع أنيناً في البدرون فرجحت هذا الظن وأبلغتكم .

ففكر المأمور هنيهة ثم قال : كانه يكلم نفسه : ان تعليل جاك لا يطابق رواية بديع ولا نستطيع أن نتحقق من رواية بديع المكان الذي كان معتقلاً فيه، هل كان بدرون تلك الفلاّ أو غيره . سنرى . أشكرك . يا مسيو جاك .

فخرج جاك وبقي بديع حسب ايعاز المأمور . فقال هذا له : إن روايتك عن صك الخمسين ألف جنيه وعن وظيفة السكرتير تحير ياسي بديع . هل لك أبوان في قيد الحياة .

— توفيا الى رحمة الله . أبي منذ عشر سنين . وأمي منذ ثلاث .

— ماذا كان اسمهما.

كان اسم أبي فهمي نصري وإسم أمي أندروماك .

— أندروماك ؟

— نعم . هي بنت أبوين أحدهما يوناني والآخرى رومانية وإنما هي ولدت في مصر وتربت فيها .

— ماذا كان يشتغل أبوك .

— كان يشتغل بتجارة القطن شريكاً للمسيـو فرنندو الروماني . وقد أثريا . ثم انفصل أبي عن شريكه وتمادى في المضاربات بالبورصة حتى خسر كل شيء ومات من الغم. فربتني أمي بتدبيرها العجيب، رحمة الله عليها .

وهل بقيت لـكم علاقة مع المسيو فرنند .

— الصداقة القديمة فقط . وقد احتاجت أمي مرة عشرين جنيهاً لنفقاتي المدرسية في المدة الأخيرة فاقترضتها منه . وماتت وهي توصيني أن أوفيه الدين . وأنا أذهب اليه في كل عيد كبير وأعايده وأرجو منه أن يمهلني بالدين . فيطيب خاطري ويقول : « لا تهتم به يا بنيّ . متى تيسر لك تدفعه. فأعود شاكراً ممتنّاً .

— كم تقدّر ثروة صديقكم الروماني .

أظن له من البيوت نحو مئة الف جنيه ، ومن الأطيان ما يقارب هذا . وأما من النقد، فلا أدري .

— أكتب لي عنوانه على هذه الورقة . وامضِ الى منزلك مطمئنّاً . ولا تخف فاني معين مخبراً سريّاً يراقبك ويحرسك .

***

عاد بديع الى منزله فوجد جاك صديقه ينتظره في الطريق . ودخلا معاً . وبديع يروي ما جرى له في سجنه . فقال جاك أخيراً . لا ريب أن ارشادي البوليس لم يكن خطأً . فأنت كنت سجيناً هناك . وقرنت هذا الارشاد بذلك التعليل لـكي لا يتردّد المأمور في محاصرة الفلاّ .

فقال بديع : إذاً ، كان عندك دليل أكثر تأكداً من ذاك . فما هو .

— دعنا من هذا . لا يهمك إلاّ انك نجوت من عصابة الأشرار والحمد لله .

ولـكني أود أن أعلم سر الصك ووظيفة السكرتير .

— أظن لا سر لذلك الاّ التمويه .

— ولـكن لماذا أطلق الأشرار سراحي وهم لم يحصلوا مني فدية . يجب أن تقول لي من أنبأك اني معتقل هناك لأني أود أن أقطع ذيول هذه المـكيدة الهائلة

— اعذرني يا بديع لأني أقسمت أن أكتم سرًّا .

فتبرّم بديع وقال : أترى أن برك بوعدك، ومحافظتك على قسمك تسوّغ بقائي مهدّداً بخطر هائل ؟ ألا ترى أن استئصال جرثومة ذلك الخطر تحلك من قسمك ؟ أوَلا ترى أن الخدمة الجليلة التي تقدمها لصديقك تكفر عن حنثك بيمينك ؟

وما زال بديع يلحف بالرجاء حتى باح له جاك : — ان ارميناك هي التي أسرّت إليّ أنك معتقل في ذلك البدرون ، وأوعزت إليّ أن أبلغ البوليس مشترطة أن أكتم ذكرها بتاتاً لئلا تتعرّض هي للخطر الوبيل .

فقال بديع شكراً لكِ يا أرميناك ، والله لولاها ... ولكن لماذا أطلق ذلك الجبار الشرير سراحي بلا انتقام : حتى ولا فدية ، أظنه هو الشخص الذي يحب أرميناك وغار مني

فقال بديع — لعله هو وارميناك تحبك .

—وأنا أحبها . ولكن هذا الحب جعلنا كلينا تحت خطر ذلك الوغد الشرير. اني براء من حبها اذا كنت لا أستطيع أن أدرأ خطر ذلك الطاغية . وانما ما رأيك بمسألة الصك الذي حاول ذلك الشرير أن يأخذ توقيعي عليه ، ثم أبدله بتعهدمني أن يكون سكرتيري بماهية مئة جنيه في الشهر . فماذا يعني ذلك الشرير بتعهد كهذا لا قيمة له، ثم يتهددني اذا لم أنفذه حين أصبح قادراً على تنفيذه ؟ . ألا يكون أن الرجل قد اعتقلني خطأً .

فقال جاك أظنه رام بهذا التعهد التمويه لكي يوهمك بالمبرر لاطلاق سراحك . لأنه يلوح لي أنه شعر ان قوّة البوليس أزمعت أن تحاصره .

***

في اليوم التالي اجتمع بديع بأرميناك وقال لها — ألف شكر لسعيك السري بانقاذي من براثن ذلك النمر .

فارتعدت أرميناك وقالت : ويحي ؟ هل أنبأك جاك الخائن بسر الخبر . ويلي لقد عرضني للخطر .

لا تنوحي ، ولا تلومي ، ولا تخافي . لم يكن جاك خائناً حين أبلغني بما فعلته لأجلي ، لأنه يجب أن يبلغني لكي أعلم كيف أتدبر لأتقي الخطر المقبل . ما زلت تحت التهديد والوعيد من ناحية ذلك الجبار الشرير . ولا تخافي ان افشاءه مصدر السر منك يعرضك لأقل خطر لأني لن أبوح بسرك . فأود الآن أن أعلم امرين : الأول : هل ذلك الوغد غار مني للعلاقة الودادية التي بيننا . فان كانت الغيرة هي سبب هذا الخطر عليّ ، فأرجو أن تعلمي

يا عزيزتي أني لست ممن يزرعون الحب بين أشواك المكايد والدسائس . فاذا كنت لا تستطيعين أن تقصي ذلك الرجيم هنا إقصاء أبديًا فأنا أقصي نفسي عنكما .

فقهقهت أرميناك وقالت : ان ذاك الرجيم زوج وأب فلا مطمع له بي . فما هو السؤال الثاني :

— كيف عرفت أني هناك مُعتقَلٌ ؟

— ان لذلك الوغد صلة بعمي، وشعرت أن عمي يستشير أبي بأمور سرية وأبي يحذره وينذره بشدّة وحدّة . فلما فُقِدتَ أنت ولم يعلم أحد أين اختفيت رأيت أبي يغضب غضباً شديداً على عمي . فأدركت أنك أنت موضوع المكيدة وان صاحب المكيدة ذلك الوغد مستعيناً بعمي. وتجسست حول المنزل المنفرد الذي جعل مستودع جرائمه ،فرجحت أنك معتقل هناك .

— ولكن لماذا اعتقلني ذاك الشرير؟

— هذا ما لم أدره . وأظن أن ذاك الشرير ينفذ خطة آخرين بأجر كبير . فطمعه ليس فيك ، بل في من حرّضه عليك . فهل تعرف لك خصوماً أو أعداء ألدّاء .

— ويحي ولماذا يكون لي خصوم وأعداء، وأنا لم أقف في سبيل أحد، ولا قطعت الرزق عن أحد ، وليس عندي اموال يطمع فيها الطامعون .

— مهما يكن من الأمر فحاذر أن تبوح باسمي في تحقيقات هذه المكيدة .

— معاذ الله ولكن لماذا أطلق ذلك الوغد سراحي وهو لم ينل مني سوى قصاصة ورق يعرف جيداً أن لا قيمة لها .

— اضطر أن يفعل قبل أن يقع في قبضة البوليس متلبساً بالجريمة — لأني أنا جعلت أبي يوهم عمي ان البوليس عرف بالمكيدة ، فأسرع عمي وأنذره ، واردت بذلك أن أنقذ عمي لئلا يمسك معه .

— ألف شكر لك يا ارميناك .

***

بعد يومين دعا المأمور إليه بديعاً وقال له : أظن أن مفتاح سر المكيدة مع صديق

والديك المسيو فرنندو الروماني، ولكنه مريض حتى الموت، فلم يمكن البحث معه. فلعلك تعوده. وتستطيع أن تفهم منه أموراً وتبلغني

مضى بديع الى المسيو فرنندو فوجده في حالة مرضية خطرة كما فهم من الطبيب. ولكن فرنندو بالرغم من سوء حاله طلب أن يدخل بديع اليه لما علم بقدومه. فدخل بديع وركع عند سريره وقبل يديه. ودعا له بالشفاء.

فقال فرنندو: اني أحبك يا ولدي حباً جماً، والله أعلم بأسرار هذا الحب. لذلك كتبت نصف ثروتي لك والنصف الآخر للجمعيات الخيرية.

فصاح بديع: بعرضك يا سيدي. فهمت الآن سر اعتقال الأشرار لي، وأخذهم العهود مني. بربك مزق الوصية لأن عاتقي ضعيف جداً ينوء تحت حمل الغنى العظيم.

فقال فرنندو: ماذا تقول؟

فروى له بديع حكاية اعتقاله باختصار. ثم قال: لك يا سيدي ابن أخ هو أولى مني بفضلك.

فارتعد فرنندو وقال: لا تذكر اسم ذلك اللعين، فاني في فراش الموت بسبب مكيدته، حاول اغتيالي لكي يقبض مالي عاجلاً. فأنا حارمه منه لا محالة. وهو بين يدي النيابة الآن وسينال عقابه عاجلاً. لا تحسب حساب مكايده. فقد أوعزت الى دائرة البوليس أن تحميك من شروره وعينت بالوصية أجر البوليس لقاء هذه الحماية. فاطمئن.

وبقي بديع يؤاسي فرنندو في ساعة احتضاره الى أن أسلم الروح. وعلى الأثر سلمه المحامي الوصية لتنفيذها.

***

في اليوم التالي قابل بديع أرميناك وأنبأها أنه يود عقد زواجهما عاجلاً. ورجا من أبيها أن يساوم ذلك الوغد على مكافأة للكف عن أذاه.

فقال له أبو أرميناك: لا تخف منه فقد وقع في يد القضاء في عدة تهم ولا أظنه يخرج من السجن قبل أن تخرج روحه من بدنه.

هكذا يكون مصير الأشرار.

وكذاك مصير الأبرار.

منهج الجاحظ

في كتابه «البيان والتبيين»

وإلى أي مدى هو مسئول عنه

الكتاب مرآة صاحبه، ومنهجه فيه صورة لعقله، ولقدرته على التصور العام لموضوعه، وبالاحاطة الشاملة به.

وحكم كتب الجاحظ في هذا حكم كتب غيره. ونظرة عاجلة سريعة في كتابه «البيان والتبيين» تخرج بصاحبها الى ان الجاحظ رجل لا يكاد يجد من نفسه الصبر على الوقوف الطويل أمام موضوعه، ولا يكاد يجد من نفسه جلداً على الاسترسال في النظرة الفكرية الواحدة من نظراته، حتى يستقصي جوانبها، ويشبعها درساً وتحليلاً، وبسطاً وتفصيلاً

والنظرة العاجلة السريعة في هذا الكتاب تنتهي بصاحبها الى أن الجاحظ لا يخرج من الفكرة الى ما عسى أن يطرد اليه المنطق من فِكر أخرى تتصل بها وتتعلق ببابها. وإنما هو مستطرد الى ما يحلو له، ولو لم يتصل بالموضوع اتصال إصالة، جانح الى ما يهوى، ولو لم يمتّ الى بحثه بما عسى أن يمتّ به القريب الى القريب، والشبيه الى الشبيه.

فهو يخرج من خطبة الى نحو، ومن نحو الى بلاغة، ومن بلاغة الى تاريخ، ومن تاريخ الى فلسفة. وهو يخلط هذا بذاك، ويضرب هذه بتلك، لا يسيطر عليه في ذلك الا الخاطرة تعنّ، والبادرة تبدر، والرأي يمثل له في غير كد، أو إدامة نظر.

ولما كان الجاحظ من أكبر كتابنا، ومن أسبقهم الى إطالة الكتب. ولما كان الجاحظ قد سبق الى هذه الطريقة في معالجة الأدب في لغتنا، فقد أصبح عند بعض المتعرضين لمثل هذه الأمور، مسئولاً عن فوضى التأليف في الأدب، وعن نقص المنهج العام في الكتاب. وأصبح عند آخرين منهم، ممن يريدون تقرير هذا الرأي وتقويته إرضاء عصبية خاصة، مثلاً لسقم العقل المشرقي، ودليلاً حيًّا على أن المفكر العربي لا يستطيع أن يقوم طويلاً للنظر في موضوع واحد، يتحرّى أسبابه ووجوهه، ويتتبع أصوله وفروعه.

وإنما هو بالسليقة والطبع، مستطرد، مفرع، وبالجبلّة متنقل متغير، ذلك حتم عليه تركيباً وخلقة.

تلك هي النتيجة التي خرج بها بعض المستشرقين من النظر العاجل أو غير العاجل في كتب أدبنا القديم، وتابعهم فيها بعض مفكرينا اصطناعاً للجديد من الرأي، فان للجديد بريقاً يخلب، وألَقاً يخدع.

على ان الأمر في مثل هذه الأحكام، يصدرها الناقد على الكتاب من الكتب، يجب أن يقوم على أساس من إطالة الوقفة عند الكتاب، وتعمق النظر فيه، حتى يتهيأ للناظر الاطمئنان السليم التام الى أن الكتاب قد صدر عن صاحبه كذلك، وانتهى إلينا على الصورة التي خطّته بها يده، لم يصادف على الزمن الطويل، عبثاً مقصوداً، أو تغييراً لم يتعمده مغيِّره، أو خرماً قد سببه له الأمد الطويل، والدهر الغادر، أو اضطراباً قد ابتلاه به جهل الناسخ، أو فداحة الفساد الذي وقع به إليه الكتاب.

يجب أن يتحقق الناقد، ومؤرخ الأدب قبل أي حكم يصدره، أن الكتاب كما هو بين يديه، صورة أمينة من كتابة صاحبه له، أو على الأقل، قريبة من أن تكون أمينة حتى يقضي بهذا الرأي أو ذاك، في عقل صاحب الكتاب، وفي صحة تصوُّره للموضوع، أو مرصد هذا التصور.

وكتب الجاحظ خاصة يجب أن ينظر إليها في هذا الضوء، وأن تعتبر في تقديرها هذه النواحي، فإن الحكم بتسفيه الرأي حكم خطير، وأخطر منه الاستدراج من الحكم على الفرد الى الحكم على عقلية أمة برمّتها، وشعب بكامله.

وكتاب « البيان والتبيين » قد ضاعت منه أشياء من غير شك، وحذفت منه عمداً أقسام من غير شك، واضطرب بعضه ببعض من غير شك، وأضيفت إليه أشياء ليست منه، فانتهى إلينا بصورة لا أتردد اليوم في القول معها بأنها لا تمثل بحالتها منهج الجاحظ العقلي ولا طريقته.

وإنك لتجد الدليل يتلو الدليل في الكتاب نفسه، فالجاحظ يرجو أن يضع لكتابه منهاجاً، ويرسم له طريقة قبل أن يتم كتابته، ثم يتأثر هذا المنهاج، ويترسم هذه الطريقة، ويأبى في ثنايا كتابه إلا أن يذكرك بأنه كتب لك كذا وكذا في الجزء الأول من كتابه، وانه سيكتب لك في كذا وكذا في الجزء الثاني أو الثالث من كتابه وأنه سيعود بك هنا الى ما بدأه هناك، وسيكمل هناك ما بدأه هنا، فتجد من ذلك أن أوله يتعلق بآخره، وأن كتابه يتماسك صدراً وعجزاً، ويتلازم أصلاً وفرعاً، وأنت عن طريق هذه المراجعة

والمذاكرة بحيث تقدر على أن تتمثل كتابه ، وتتصوّر منهاجه.

وأنت عن طريق هذه المراجعة والمذاكرة ، قادر على أن تلمح الجزء من الكتاب إن كان سقط أو بقي ، وإن كان قد نقل إليك نقلاً أميناً ، أو عبثت به يد العابثين . فان كانت الأولى فبها ، ولك حق الحكم ، وإن كانت الثانية فلا أقل من التريث والحذر في القطع بأن عقل الجاحظ كان هكذا أو لم يكن كذلك .

وعن طريق هذه المراجعة والمذاكرة نستطيع أن نتحقق أن الكتاب قد ضاعت منه أشياء . ففي القسم الأخير من الجزء الأول (ص ٢٤٢ وما يليها) نجده يقول :

« قال أبو عثمان : وقد طعنت الشعوبية على أخذ العرب المخصرة في خطبها ، والقنا ... بكلام مستكره نذكره ، إن شاء الله ، في الجزء الثالث .

ولا بدّ من أن نذكر فيه بعض كلام معاوية ، ويزيد ... الخ .

ولا بدّ من أن نذكر فيه أقسام تأليف جميع الكلام ، وكيف خالف القرآن جميع الكلام الموزون والمنثور ، وهو منثور ، غير مقفى على مخارج الأشعار ، والأسجاع ، وكيف صار نظمه من أعظم البرهان ، وتأليفه من أكبر الحجج .

ولا بدّ من أن نذكر فيه شأن اسماعيل ... الخ

ولا بدّ من ذكر من صعد المنبر فحصر وخلط ... الخ

ولا بدّ من ذكر المنابر ، ولم اتخذت ، وكيف كان الخطباء من العرب في الجاهلية وفي صدر الاسلام ، وهل كانت المنابر لأمة غير أمتنا ؟ وكيف كانت الحال في ذلك .

وقد ذكرنا أن الأمم التي فيها الأخلاق ، والآداب ، والحكم ، والعلم ، أربع : وهي العرب ، والهند ، وفارس ، والروم .

وفيما أنت تسير هذه السيرة ، وتجري على هذا النسق ، إذا بك تلمح فقرة قد أقحمت إقحاماً على السياق ، وحشرت حشراً في هذا المكان ، خاصة بمكانة الحبشة من هذه الأمم حتى اذا عاد الجاحظ الى موضوعه ، وجدته يبدأه هكذا :

« والدليل على أن العرب أنطق ، وأن لغتها أوسع ... الخ » ثم لا تجد خبراً لما بدئت به العبارة ، فإذا أنت عدت بها الى ماضي القول ، وجد موضع كلمة .

« والدليل » هذه إنما يجيء عطفاً على عبارته المتكررة « ولا بد من ذكرنا كذا وكذا » ، « ولا بد من ذكرنا الدليل على أن العرب أنطق ... »

فيستقيم بذلك المعنى ، ويتلاءم النسق . وليس الجاحظ بالذي يوقع نفسه في مثل هذا الغموض ، بإهمال ذكر اللفظ الأساسي في بيان معناه ، بعد ما فرق عنده بين المتعاطفات

مثل هذه الفقرة الطويلة ، وإنما وقع هـذا الإبهام في العبارة نتيجة لإقحام هذه الفقرة بين المتشابهات ، المشتبكات من معانيه .

فاذا أنت سرت سيرتك في إكمال ذلك الثبت للموضوعات التي عالجها في جزء من كتابه الثالث وجدتَ هذا :

« والدليلَ (أي ولا بدَّ من ذكرنا الدليل) على أن البديهة مقصورة عليهـا ، وان الارتجال والاقتضاب خاص فيها ، وما الفرق بين أشعارهم وبين الكلام الذي تسميه الفرس والروم شعراً ؟ وكيف صار النسيب في أشعارهم ، وفي كلامهم الذي أدخلوه في غنائهم ، وفي ألحانهم إنما يقال على ألسنة نسائهم ، وهذا لا يصاب في العرب الا القليل اليسير ، وكيف صارت العرب تقطع الألحان الموزونة على الأشعار الموزونة ، فتضع موزوناً على موزون ، والعجم تمطط الألفاظ ، فتقبض وتبسط حتى تدخل في وزن اللحن ، فتضع موزوناً على غير موزون » .

تقرأ هذا كله فتجد فهرساً واضحاً لبعض ما سيذكره الجاحظ في الجزء الثالث من كتابه ، ووعداً بيناً بتقديم الأدلة على ما يراه ويقول به .

فاذا نحن جئنا الى هذا الجزء من كتابه لم نجده يفي بما وعد ، إذا نحن اعتبرنا الكتاب على حاله ، وأخذناه على شكله وصورته .

وليس أكثر إثارة للشكوك ، وترجيحاً للريب من أن ما ورد في هذا الجزء ليس إلاَّ أتفه ما ورد في هذا الثبت مساساً بالشعوبية ، وتحقيراً لمذهبها .

أما ما كان منه بحيث يقطع في أصول هذه الطائفة ، ويتناول مطاعنها ، ويصيب مقاتلها كمثل تفصيل هذه الفروق التي ترجع الى طبيعة المواهب في العقل ، وفي اللسان ، وإلى حظ كل من الأمتين من الثقافة ، والفارق بين جوهرها وجوهر الثروة الفكرية العربية ، فأمر قد رفع من الكتاب ، فلم يمسسه المؤلف قط ، أو مرَّ به مروراً تافهاً هيناً ، قد تكون الاشارة الموجزة اليه في هذه الفقرات أكثر لذعاً ، وأشد إيذاء لأصحابه العرب منه لأعدائهم من الشعوبية .

فهذه الاشارة الدقيقة المعجزة ، في الفقرة السابقة ، الى الفرق بين طبيعة اللغة العربية الصوتية ، وطبيعة هاتين اللغتين الآريتين ، وما ترتب عليه من مخالفة بين وزن اللحن الغنائي ووزن الشعر المتغنى به لم يرد عنها شيء في الجزء الثالث ، حيث أشار الى أنه سيعالجه فيه .

وكذلك الكلام عن شعر النسيب عند الفرس والروم ، وطبيعته عندهم وكيف يرد في هذا الشعر على ألسنة النساء ، وهو أشبه بأن يكون إشارة الى الدراما المنطوقة على

ألسنة أبطالها، لم يرد عنه شيء في موضعه الذي أشار اليه .

إذا أنت نظرت في هذا، وذكرت معه أن هذا الجزء الثالث من الكتاب خاصة، قد وضع في الرد على الشعوبية، بل إني أذهب الى ما هو أبعد من ذلك، فأكاد أوقن بأن الكتاب كله قد وضع في الرد على الشعوبية ردًّا مباشراً، أو غير مباشر، إذا أنت نظرت في هذا تبادر اليك شيء من الأسباب التي دعت الى أن يعبث بهذا الكتاب عبثاً أدّى به الى مغايرة بعيدة فيه لأصله . ولا أكاد أرتاب في انه كان قويًّا قوة عقل الجاحظ، فكان ثقيلاً عليهم، وكانت الحرب، والخصومة بين الشعوبية، وبين العرب يومئذ على أشدها، فحطموا من الكتاب تحطمهم من السلاح يوجه إليهم .

فالأجزاء الطاعنة على العرب من الكتاب، قد بقيت فيه كاملة، دون أن تمس، كباب مطاعن الشعوبية على العرب (ج ٣ ص ٦) . والكلام في تفوق الفرس في الخطابة على جميع الأمم (في نفس المكان) مسوق سياقاً مبسوطاً مفصلاً، على طريقة الجاحظ في الاسهاب والتفصيل . وكذلك القول في تعديد فضائل العقل اليوناني وثمراته (ص ٧) .

ولكن معالجة هذه الأمور من جهة نظر الخصوم، قد حذفت، ومعالجة الفضائل العربية في الخطابة قد حذفت، وهي طبعاً أشبه بهذا الباب، إلاّ ما اختص منها بفضائل العصا، فانه يعالجها هنا، ولكنها معالجة تافهة، لست أبرىء الجاحظ من انتحالها، ولكني لا أشك في أنه ليس بالكاتب الذي يقف عندها .

فالجاحظ قويّ العقل جدًّا، يهتم لكل شيء، ولا يكاد يترك أيّ خاطر من خواطره في موضوع يفلت منه، فهو يرصد للقيم والتافه جميعاً، ويحتفل بهما معاً، ولكنه لا ينسى منهما نسياناً تامًّا طرفاً، أو يمر به مروراً ساذجاً .

والملاحظ في هذا الجزء خاصة، أن معالجة هذه الأمور التي كانت تفخر بها الشعوبية على العرب، على حالتها القائمة بها الآن في الكتاب، أشبه شيء بإثبات الفخر لهم، وتفوقهم على العرب (أنظر ص ١٤، ١٥)

ولقد كنا نقبل هذا لو أنا فهمنا الجاحظ فيه، على مقتضى الصورة التي أراد بعض ناقديه أن يظهره عليها، في كتابات له أخرى، من جهة مناقضته لنفسه، وتفضيله اليوم ما كان يطعن عليه بالأمس (وهذا أيضاً كلام لا سند له من حق إذا تعمق القارىء العلل التي يبينها الجاحظ لاتجاهاته تلك في كتاباته المشار اليها) . ولكن البقية من كلامه في هذا الموضوع لا تنبىء عن أي اتجاه من هذا الضرب في معالجة حجج الشعوبية. فان من يقول منهم في كتابه :

« فتفهم عني، فهَّمك الله، ما أنا قائل في هذا . واعلم أنك لم تر قوماً قطُّ أشقى من هؤلاء الشعوبية، ولا أعدى على دينه، ولا أشد استهلاكاً لعرضه، ولا أطول نصَباً، ولا أقل غُنماً من أهل هذه النِّحلة. وقد شفى الصدور منهم طول جسوم الحسد على أكبادهم، وتوقد نار الشنآن في قلوبهم، وغليان تلك المراجل الفائرة، وتسعر تلك النيران المضطرمة، ولو عرفوا أخلاق كل ملة، وزي كل لغة، وعللهم في اختلاف إشاراتهم وآلاتهم وشمائلهم، وهيئاتهم، وما علة كل شيء من ذلك، ولِمَ اختلقوه، ولِمَ تكلفوه، لأراحوا أنفسهم، ولحقت مؤونتهم على من خالطوهم » .

إن من يقول عنهم مثل هذا القول رجل موتور، يشعر بالجرح في قلبه، فليس عنده مكان لمهادنة، وليس فيه محلٌّ لمحاسنة، وليس مثله، في حالته تلك، بالذي يستهين بالأمر، ليخلط فيه بين لهو المجادل، وغواية الهازل .

ثمَّ إن الكتاب يظهر فيه اختلاط عجيب، بعض أعراضه يتبين في تكرار بعض الفقر بنفسها في أماكن منه متفرقة، فإن العبارة السابقة من كلامه (وهي مذكورة في ص ١٦ من الجزء الثالث) تعاد مرة أخرى بما يكاد يكون نصها (في ص ٥١ ج ٣) مع تغيير تافه. وذلك إذ يقول :

« ولو علم القوم أخلاق كل ملة، وزي كل لغة، وعللهم في ذلك، واحتجاجهم له، لقلَّ شغبهم، وكفونا مؤونتهم » .

وتكملة الحديث بعد ذلك أشبه شيء بما مضى. (في ص ١٦) وأقرب الى موضوعه، وأشبه بالدليل من قضاياه. وكأن ما جاء بين ما في هذه الصفحة، والصفحة الحادية والخمسين حشوٌ زائد على الموضوع، قد أضافه إليه غير المؤلف. ولربما كانت هذه الإضافات في موضوع العصا من عمل طالب من طلبته، أو راوٍ من رواة كتابه. فاني يخيل إليَّ أن الجاحظ لم يتركه على هذه الصفة .

وفي الجزء الثالث، الصفحة السبعين بعد المائة يقول :

« وقد قلنا في ذئب أهيان بن أوس، وغراب نوح، وهدهد سليمان، وكلام النملة، وحمار عزير، وكذلك كل شيء أنطقه الله بقدرته، وسخره لمعرفته ومشيئته » .

وهي أشياء لم يتحدَّث عنها أي حديث فيما سبق من كتابه .

ومما كرَّره أيضاً قوله (ج ٣ ص ٢٥٩) .

« كان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب، وهم إليه أحوج، لردِّه مآثرهم عليهم، وتذكيرهم بأيامهم .

فلما كثر الشعراء ، وكثر الشعر ، صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر »... فقد ذكر مثل هذا من قبل (ج ١ ص ١٧٠) بإسهاب .

هذا فضلاً عن تفرق واضح في تماسك أجزاء الكتاب ، وتهافت في نسقه لا يكاد يكشف عن شيء قدر ما يكشف عن محاولة سافرة لستر هذه الثغرات التي خلت بحذف ما حذف عمداً ، على يد غير الجاحظ من أجزاء الكتاب .

وقد يكون الجاحظ من أنصار التنويع في الكتاب إذا طال ، والخروج المتعمد من الموضوع ، هرباً من إسئام القارىء وإملاله ، وتخفيفاً عنه ، وحملاً له على متابعته ، وإنه لينبه على ذلك في مواضع كثيرة من كتابه الحيوان خاصة .

ولكنه كما يقول عن نفسه ، يفعل ذلك على ألا يخرج من الباب الى غيره ، أو الفن الى ما هو بريء منه .

وهو إذ يفعل ذلك ، لا يفعله استجابةً لواقع عقلي محتوم ، لا فكاك له منه ، ولا مهرب منه الى غيره ، وإنما يفعله مؤثراً له ، مختاراً ، لأنه يعلم أن فيه إبعاداً لكد الذهن ، وشحذاً لهمة القارىء . فليس الجنوح ، بعض الجنوح ، منه ، طبعاً فيه ، ولا مركباً في تكوينه العقلي .

وإلا فما أبعد الفرق ، وأوسع الشقة بين نسق الجاحظ التفكيري في هذا الكتاب وبين نسقه التفكيري ، ومنهجه المنطقي في كتب غيره ، وفي رسائله خاصة ، لا يعود فيها التماسك الى موضوعها وحده قدر ما يعود الى بقائها على صورة تقرب من أصلها .

ولقد تقرر في ذهني ، من هذه الاضطرابات الغريبة أن الكتاب مجموع من صفحات كان ينقلها عن الجاحظ أحد تلامذته ، أو أنه خلط عجيب بين مذكرات تلاميذه ، عثر عليها الجامع بعد زمان ، فألف بينها تأليفاً لا يسأل عنه الجاحظ ، وهو بالتالي لا يصور منهجه ، وتفكيره .

وقد لقيت الكتب الكثير من العبث لما مرت به من هذه الأطوار . حدث ذلك لكتاب « طبقات الشعراء لابن سلام » ففيه أمثلة كثيرة من الخرم والنقص والخلط . وذلك ظاهر في جميع طبعاته حتى الأوربية منها .

وهو في صورته الأخيرة، التي وقعت إلينا خلط بين الباقي من كتابين كتبهما ابن سلام أحدهما في طبقات الشعراء الجاهليين، والثاني في طبقات الشعراء الاسلاميين، فجمع الكتابان معاً، في عصر متأخر عن عصر صاحبهما، وجعلا كتاباً واحداً. بل إن مقدمتي الكتابين جعلتا مقدمة واحدة، يرى البصير فيها ما يميز به بين أجزائهما.

وكذلك وقع لكتاب ابن خلكان « وفيات الأعيان » من الثغر والخرم ما لا محل لتفصيله هنا.

ووقع مثل ذلك أيضاً لكتاب الأغاني، حتى إن هذا ليدفع بياقوت الحموي إلى أن يتهم صاحبه بأنه يعد بالشيء في سياق الكتاب ثم لا يفي به. كما فعل في الكلام على أبي العتاهية لما وعد بأن يفرد له باباً فيما وقع بينه وبين صاحبته عتبة، ثم لم يفعل. ولا شك عندي في أنه فعل، ولكن الباب سقط من الكتاب، ولم يصل الينا، كما سقطت منه في طبعاته الموجودة الآن بين أيدينا فعلاً ترجمة مسلم بن الوليد، مع بقائها في غيره منسوبة اليه

ولقد شهد الجاحظ بنفسه شيئاً من هذا يقع لكتبه، ولم يكن أحد أشد سخطاً على فاعله منه اذا هو عرفه. فيقول ياقوت في مقدمة كتابه « معجم البلدان »:

« وقد حكى عن الجاحظ أنه صنف كتاباً، وبوّبه تبويباً. فأخذه بعض أهل عصره، فحذف منه أشياء، وجعله أشلاء. فأحضره وقال له:

يا هذا! إن المصنف كالمصور، وإني قد صورت في تصنيفي صورة، كانت لها عينان، فعوّرتهما، أعمى الله عينيك، وكان لها أذنان فصلمتهما، صلم الله أذنيك، وكان لها يدان فقطعتهما، قطع الله يديك، حتى عدّ أعضاء الصورة. فاعتذر اليه الرجل بجهله هذا المقدار، وتاب إليه عن المعاودة إلى مثله ».

وهذه القصة دليل على ما كانت تتعرض له الكتب، وما لا تزال تتعرض له الآن من التشويه، والمسخ على أيدي طائفة الملخصين، والمرتبين، والمهذبين، فضلاً عما يمكن أن يطرأ على الكتاب من عبث الزمان به حتى لقد لا يتبقى منه إلاّ صورة واحدة، مضطربة، مشعثة، يرتبها اللاحق حسبما عنّ له وارتآه، أو مخرومة، لا يحس منها المراجع بالخرم، فيؤديها الينا على أنها صورة كاملة صحيحة، فتحمل من جيل الى جيل، وقد لازمها النقص،

وسلّم به فيها على أنه من خطأ المصنف، لا من جهل الناسخين او الشارحين.

والاشارة إلى كتب الجاحظ بعينها، في النص المتقدم، جديرة بأن تعد رأينا في الكتاب بعد ما قدمنا من دلائل على اضطرابه ونقصه.

ولقد كان الجاحظ يحس بثقل هذا على كتبه، وأثره على تصانيفه، وإنا لنسمعه يجأر منه بالشكوى، ونراه وهو يحاول الاحتياط لما عسى أن يصيب منه بعض رسائله، بعد أن عرف، دون ريب، ما أصاب غيرها. فنجده يقول فيما يشبه أن يكون مقدمة لرسالة من رسائله، وضعها في طبقات المغنين:

« فلما استتب لنا الفراغ مما أردنا من ذلك، خطر ببالنا كثرة العيابين من الجهال برب العالمين، فلم نأمن أن يسرعوا بسفيه رأيهم، وخفة أحلامهم، الى نقض كتابنا، وتبديله، وتحريفه عن مواضعه وإزالته عن أماكنه التي عليها رسمنا، وأن يقول كل منهم في ذلك على حاله، وبقدر هواه ومخالفته، والميل في ذلك الى بعض، والذم لطبقة، والحمد لأخرى، فيهجنوا كتابنا، ويلحقوا بنا ما ليس من شأننا، وأحببنا أن نأخذ في ذلك بالحزم، وان نحتاط فيه لأنفسنا، ومن ضمه كتابنا، ونبادر الى تفريق نسخة منها، وتصييرها في أيدي الثقات والمستبصرين الذين كانوا في هذا الشأن، ثم ختموا ذلك بالعزلة والتوبة منه، كصالح بن أبي صالح، وكأحمد بن سلام، وصالح مولى رشيدة.

ففعلنا ذلك، وصيرناه أمانة في أعناقهم، ونسخة باقية في أيديهم، فان شيب به شوب يخالفه، وأضيف اليه ما لا يلائمه، رجعنا الى النسخة المنصوبة، والأصول المخلفة عند ذوي الأمانة والفقه ».

فهذه إشارة واضحة الدلالة من الجاحظ، يعرف فيها ما تعرضت له كتبه في حياته ومن أجل ذلك احتاط للأمر قدر احتياطه. ولكن ذلك لم يعفه مما أصاب كتبه، بل مما أصاب هذه الرسالة نفسها بعد موته.

وليس الجاحظ إذن مسئولاً عن فوضى التأليف، ولا عن منهج الاستطراد، وليس من الانصاف إلقاء القضايا كالسهام، تصيب من تصيب، وتخطىء من تخطىء.

الدكتور نجيب محمد البهبيتي

قوة القنبلة الذرية

وكيف تنفجر

في مجلة « ليف » الأخيرة شرح بسيط لقوة القنبلة الذرية ربما كان أوضح وأقرب للافهام مما سبقه من الشروح المستخرجة فيما يأتي بتصرف، يضيف عليه زيادة بيان ووصف

قوة القنبلة الهائلة تأتي من عملية انشقاق الذرة . بهذا الانشقاق أو الانشطار أو الانفلاق تنشق نواة الذرة المؤلفة من كهارب (بروتونات) ايجابية الشحنة الكهربائية ، وذريرات أخرى لا شحنة فيها تسمى نيوترونات . وبانفلاق هذه النواة تنطلق القوة التي كانت تربط هذه الكهارب والذريرات — تنطلق بشكل ضويئات (فوتونات) .

كيف يحدث هذا الانشقاق

لا يحدث هذا الانشقاق (في قنبلتنا هذه) الا في العناصر الثقيلة (المشعة) التي تنحل ذراتها الى ذرات أخرى أصغر منها حين تصدمها نيوترونات شاردة ضالة قذفتها عملية خاصة مفتعلة يفعلها مخترعو القنبلة ، ولها شرح آخر . تنقذف بسرعة هائلة . ومتى كانت كل ذرة من ملايين الذرات التي في الكتلة تنفلق ، فقدر قليل من كتلتها الأصلية يتحول الى دفعة عظيمة من الطاقة بشكل نور وحرارة (هي الضويئات المشار اليها آنفاً) .

وفي نفس الوقت ينقذف من شذرات الانشطار أو الانفلاق (أي ذرات العناصر التي هي أصغر من الذرة المنفلقة) نيوتروناً أو ثلاثة نيوترونات (وهي لا سلبية ولا ايجابية) . وكل واحد من هذه النيوترونات تصدم ذرة أخرى وتفلقها . ومتى انفلقت صدرت منها نيوترونات أخرى تحذو حذو النيوترون الاول الذي فلق ذرتها، وتفلق بنوبتها ذرات أخرى ، وهكذا دواليك . وهذه هي العملية التي يسمونها سلسلة الانفلاقات، أي أن انفلاق كل ذرة يسبب انفلاق ذرتين . والذرتان تسببان انفلاق أربع ، والأربع تسبب انفلاق ثمان وهلم جراً . وهذه الانفلاقات المتوالية تحدث بسرعة لا يمكن تصورها، تحدث ملايين المرات في الثانية — هي سريعة كسرعة النور (٣٠٠ ألف كيلو متر بالثانية) . فمجموع هذه الانفلاقات التي تتفتت بها الذرات ، وتنطلق منها الطاقات (القوات) لا تستغرق ثانية من الوقت كأنّ ملايينه تحدث جميعاً معاً في نفس الوقت .

من المواد القابلة ذراتها الانشقاق عنصران فقط ، عنصر بلوتونيوم ، ونوع من ثلاثة أنواع من عنصر اليورانيوم أو (الأورانيوم) وهو الذي وزنه ٢٣٥ . وأما بقية أنواع اليورانيوم وهما بـ ٢٣٤ وبـ ٢٣٨ فلا تنشق. وأما بقية العناصر التسعين فلم يعالج منها للانفجار، سوى الهيدروجين. (وقد كتبنا عن قنبلته في عدد سابق من المقتطف) لأن تفجيرها صعب جداً . والى الآن لم يعالجه أحد . على أن الحصول على ذينك العنصرين صعب جداً ولهذا

أصبحا من العناصر الثمينة جداً . أما اليورانيوم ٢٣٥ فليس هو اليورانيوم المعروف الموجود في الطبيعة ، اليورانيوم المعروف في الطبيعة هو مزيج من الأنواع الثلاثة . والنوع الذي يهمنا أي الـ ٢٣٥ هو نحو جزء من ٢٠٠ من المزيج كله . يعني أن في المزيج الذي يزن مئتي جرام مثلاً يوجد جرام واحد فقط من صنف الـ ٢٣٥ وهو ما يسمونه نظيراً ، وجمعه نظائر ، وعزله عن رفيقيه صعب جداً ، وربما كان هذا العزل أهم شيء في اصطناع القنبلة

لمعظم العناصر التي في الطبقة نظائر كهذا النظير . لبعض العناصر نظيران كالهيدروجين ففيه الخفيف والثقيل . ولبعضها ثلاثة نظائر كاليورانيوم الذي نحن بصدده . ولبعضها أكثر كالكبريت الخ . والنظائر التي في العنصر الواحد متماثلة في الخاصة الكيماوية (في الألفة الكيمية) لأن التعبئة الكهربائية فيها جميعاً واحدة . وانما تختلف في الوزن فقط لأنها مختلفة في عدد ما فيها من النيوترونات التي لا تكهرب فيها

وهذا النظير (٢٣٥) الذي في اليورانيوم يصعب جداً فرزه عن رفيقيه . وإنما هناك وسيلة يمكن بها فرزه ، وهي الاستعانة بثقله ، فهو أخف من يورانيوم ٢٣٨ وأثقل من يورانيوم ٢٣٤ فاستنبط لنا طريقة لهذا الفرز عن طريق الثقل . هل تستطيع ؟ أن فرز اليورانيوم حيّر علماء الذرّة . ولكنهم نجحوا أخيراً .

أما البلوتونيوم فليس الحصول عليه أسهل من يورانيوم ٢٣٥ لأنه غير موجود في الطبيعة ولا هو أحد نظراء اليورانيوم ولا غيره . وانما هو يبتدع من اليورانيوم الطبيعي حين يصدم نيوترون منقذف من ذرّة يورانيوم صنف ٢٣٥ ذرّةً من يورانيوم ٢٣٨ . هذه الذرّة (٢٣٨) تمتص النيوترون أو تجتذبه إليها حين ينقذف نحوها ، فتتحوّل الى عنصر آخر لأن نيوتروناتها تزداد واحدة فيزداد وزنها فتصبح ذرّة جديدة باسم نبتونيوم . وهذه لا تلبث أن تستضيف بروتوناً جديداً في أثناء عملية القذف ، فتتحوّل الى عنصر البلوتونيوم الذي نحن بصدده . وهو عنصر لم يكن موجوداً في الطبيعة . بل نتج نتاجاً في اثناء عملية القذف . فهو عنصر مصطنع إذاً ، فزاد به جدول العناصر عنصراً . فصارت ٩٣ عنصراً . ولكي تنشىء قدراً كبيراً من البلوتونيوم من قطعة من اليورانيوم يجب أن تواظب على رفع قدر التفجير في اليورانيوم . ولهذه العملية وصف يعسر إيضاحه لما فيه من التعقيد

كلا البلوتونيوم واليورانيوم ٢٣٥ قابلان للانفلاق والانشقاق ، أو الانفجار بقدر معين من الكتلة . فاذا كان القدر دون الكيلو جرام الواحد أو المئة كيلو جرام فلا يحدث انفجار . وهنا نحوّل القارىء الى كتابنا «عالم الذرّة» وهناك يجد الشرح الكافي لهذه النقطة وغيرها .

(ند)

ابن خفاجة الاندلسي

احد الشعراء المغمورين

﴿ الغزل ﴾ أما غزله فافنان يانعة ، وزهور نضرة ،ونسيم عليل ، دونه كأس التسنيم ، فمنه قوله يخاطب محبوبه :

يارب ليل بته وكأنه من وصف شعرك
تنهل مزنة دمعتي فيه وينـدى نور ذكرك
ابتسمتُ فيه وقد بكيت عقيق خدك در ثغرك
وشرقت فيك بعبرة قد وردتها نار هجرك
فكأنما ينفض عن حبب لها رمان صدرك
ولربَّ ليل قد صدعت ظلامه بجبين بدرك
ولهوت فيه بدرةّ مكنونة في حق خدرك
تندى شقائق وجنتيك به وتنفح ريح نشرك
وقد استدار لصفحتي سوسان جيدك طل درك
حيث الحبابة دمعة تجري بوجنة كأس خمرك
وتهز منك فتنثني بقضيب قدك ريح سكرك
وتعب من رجراج ردفك موجة في شط خصرك

﴿ ندمه وأسفه وبكاؤه على الشباب ﴾ نظر في المرآة ، فبدت له شعرة بيضاء في عذاره ، فشمله شعور غريب ، مزج بين الأسف على ذهاب الشباب ، والحزن على حرمانه من عطف الحسان ، فصوَّر هذا الشعور بريشة مصوِّر ماهر فقال :

أرقت على الصبا لطلوع نجم   أسميه مسامحة مشيبا
كفاني رزء نفسي أن تبدى   وأعظم منه رزءاً أن يغيبا
ولولا أن يشق على الغواني   للاقيت الفتاة به خضيبا
فلم أعدم هناك به شفيعاً   الى أمل ولم أبرح حبيبا
الى أن قال : وملت مع الشباب عن التصابي   وكيف به وقد طلعت رقيبا

ولم يزل يسرد شعوره سرداً حتى قال :

فأحسن من حمام الشيب عندي   غراب شبيبة ألف النعيبا
يطيب بنفسه عند الغواني   فيغني عن فتيت المسك طيبا

﴿ شكوى الحال وفقد الاخوان ﴾ وتضيق نفسه بأفاعيل الدهر به مع فقد اخوانه فيقول :

بعيشك هل تدري أهوج الجنائب   تخب برحلي أم ظهور النجائب ؟
فما لحت في أولى المشارق كوكباً   فأشرق حتى جئت أخرى المغارب
وحيداً تهاداني الفيافي فأجتلي   وجوه المنايا في قناع الغياهب
ولا جار إلاّ من حسام مصمم   ولا دار الاّ في قتود الركائب
ولا أُنس إلاّ أن أضاحك ساعة   ثغور الأماني في وجوه المطالب

إلى أن يقول :

فحتى متى أبقى ويظعن صاحب   أودع منه راحلاً غير آيب

﴿ زهده ﴾ ويستدل على زهده في الدنيا بقوله :

ألا قصر كل بقاء ذهاب   وعمران كل حياة خراب
وكل يدان بما كان دان   فثمّ الجزاء وثمّ الحساب
ولا خطة غير احدى اثنتين   إما نعيم وإما عذاب
فرحماك يا من عليه الحساب   وزلفاك يا من إليه المآب

﴿ حبه وطنه ﴾ ومما يدل على حبه وتعلقه بوطنه قوله :

يا أهل أندلس لله دركم   ماء وظلٌّ وأنهارٌ وأشجار
ما جنة الخلد إلاّ في دياركم   ولو تخيرت هذا كنت أختار
لا تختشوا بعد ذا أن تدخلوا سقراً   فليس يدخل بعد الجنة النار

ولهذه الأبيات حكاية طريفة وهي :

قدم الخليل رسولاً الى سلطان المغرب، فأنشد بحضرته هذه الأبيات . فقال السلطان : كذب هذا الشاعر — يشير الى قوله : جنة الخلد — فقال الخليل : يامولانا بل صدق ، لأنها موطن جهاد !!. والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « الجنة تحت ظلال السيوف » فاستحسن السلطان قوله . ورفع عن الشاعر لومه ، وأجزل صلته .

فاعرف قدر هذا المغمور من هذا الطل ، ولا تنس الاغتراف من بحر هذا الشاعر الفحل كلمة كتبتها خدمة للأدب ، وهكذا يجب أن يرمي من كتب !.

القاهرة   محمد رضوان احمد

فهرس الجزء الاول

من المجلد السابع عشر بعد المئة

١ الصهيونية وضد السامية : للسير ارثر جيث
١١ التجديد في فن الطرب
١٦ أنا والنور (قصيدة) : فيصل عمران القاضي
١٧ منابع النيل حسب عقيدة قدماء المصريين : أنطون ذكري
٢٣ سر الوجود : من ذكريات الصبا : ن .
٢٥ تقدم الطب في عهد فاروق العظيم : الدكتور يوسف كحيل
٢٩ ذكرى ويأس : راجح لطفي جمعه
٣٠ للثقافة العامة : مكتبة كلية البنات بغمره
٣٣ أنين فتاة (قصيدة) : جانيت كليرمان
٣٤ مكتشفات علمية : عوض جندي
٣٧ ادوار العمر
٣٩ الموسوعة الاجتماعية العربية
٤١ مصيبة في ثروة (قصة)
٤٩ منهج الجاحظ في كتاب « البيان والتبيين » : الدكتور نجيب محمد البهبيتي
٥٨ قوة القنبلة الذرية
٦٠ ابن خفاجه الأندلسي : محمد رضوان احمد

الديموقراطية : مسيرها ومصيرها « ملحق » : لرئيس التحرير